



القسم العاشر

تفسير السور الكريمة

النور - الفرقان - الشعراء

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طُبع على نفقة المحسن الكبير

معالي السيد حسن عباس الشربتلي

وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع

دار القرآن الكريم

بيروت

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين المأثور والمعقول ، مستمد من أوثق كتب التفسير
بأسلوب ميسّر ، وتنظيم حديث ، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

القسم العاشر

تفسير السور الكريمة
النور - الفرقان - الشعراء

تأليف
محمّد علي الصّابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى - مكّة المكرّمة

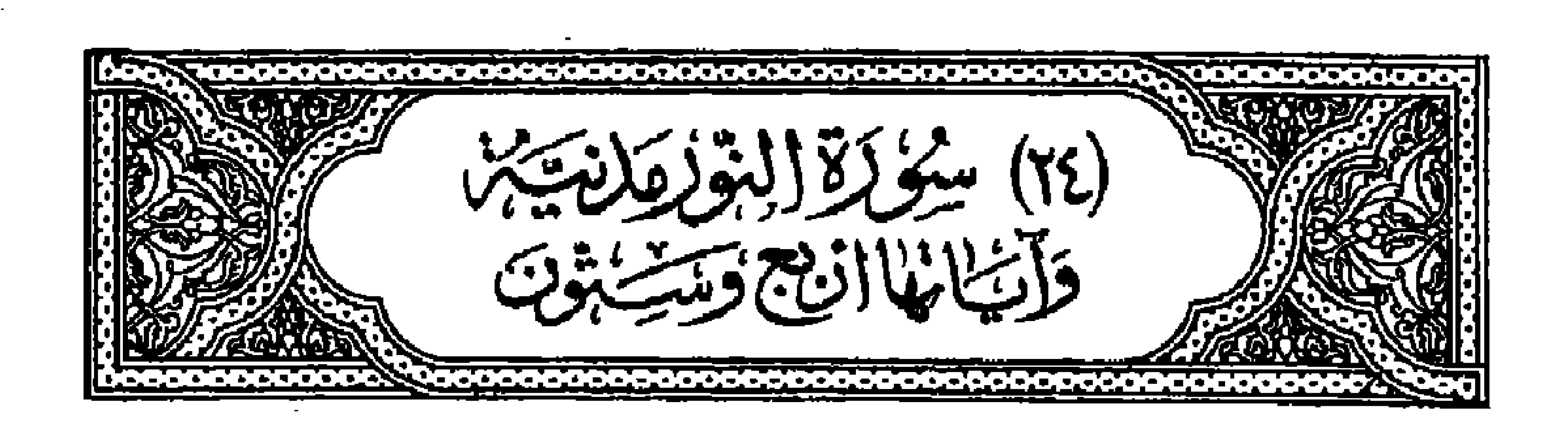
طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير
معالي السيّد حسن عبّاس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يُباع

دار القرآن الكريم
بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م

شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة ، العمارية ، الرياض



بين يدي السورة

* سورة النور من السور المدنية ، التي تتناول الأحكام التشريعية ، وتُعنى بأمور التشريع ، والتوجيه والأخلاق ،وتهتم بالقضايا العامة والخاصة التي ينبغي ان يُربى عليها المسلمون أفراداً وجماعات ، وقد اشتملت هذه السورة على أحكام هامة وتوجيهات عامة تتعلق بالأسرة ، التي هي النواة الأولى لبناء المجتمع الأكبر .

* وضّحت السورة الآداب الاجتماعية التي يجب أن يتمسك بها المؤمنون في حياتهم الخاصة والعامة ، كالاستئذان عند دخول البيوت ، وغض الأبصار ، وحفظ الفروج ، وحرمة اختلاط الرجال بالنساء الأجنبيات ، وما ينبغي أن تكون عليه الأسرة المسلمة و« البيت المسلم » من العفاف والستر ، والنزاهة والطهر ، والاستقامة على شريعة الله ، صيانةً لحرمتها ، وحفاظاً عليها من عوامل التفكك الداخلي ، والانهيار الخلقي ، الذي يهدم الأمم والشعوب .

* وقد ذكرت في هذه السورة الكريمة بعض الحدود الشرعية التي فرضها الله كحد الزنى ، وحد القذف ، وحد اللعان ، وكل هذه الحدود إنما شرعت تطهيراً للمجتمع من الفساد والفوضى ، واختلاط الأنساب ، والانحلال الخلقي ، وحفظاً للأمة من عوامل التردي في بؤرة الإباحية والفساد ، التي تُسبب ضياع الأنساب ، وذهاب العرض والشرف .

* وباختصار فإن هذه السورة الكريمة عالجت ناحية من أخطر النواحي الاجتماعية هي « مسألة الأسرة » وما يحفها من مخاطر ، وما يعترض طريقها من عقبات ومشاكل ، تودي بها إلى الانهيار ثم الدمار ، هذا عدا عما فيها من آداب سامية ، وحكم عالية ، وتوجيهات رشيدة ، إلى أسس الحياة الفاضلة الكريمة ، ولهذا كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة يقول لهم : علّموا نساءكم سورة النور .

التسمية : سُميت سورة النور لما فيها من إشعاعات النور الرباني ، بتشريع الأحكام والآداب ، والفضائل الإنسانية التي هي قبسٌ من نور الله على عباده ، وفيضٌ من فيوضات رحمته وجوده ﴿الله نور السموات والأرض﴾ اللهم نور قلوبنا بنور كتابك المبين يا رب العالمين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ

اللغة : ﴿سورة﴾ السورة في اللغة : المنزلة السامية والمكانة الرفيعة قال النابغة :

ألـم تَرَ أن اللـه أعطـاك سورة تـرى كل ملك دونها يتذبذب

وسميت المجموعة من الآيات لها بدءٌ ونهاية سورة لشرفها وارتفاعها كما يسمى السور للمرتفع من الجدار ﴿الزاني﴾ الزنى : الوطء المحرم ويسمى الفاحشة لتناهي قبحه وهو مقصور وقد يمد على لغة أهل نجد فيقال الزناء قال الفرزدق :

أبـا طاهـر من يزن يعـرف زناؤه ومن يشرب الخرطوم يصبح مسكراً

﴿رأفة﴾ شفقة وعطف مأخوذ من رؤف إذا رق ورحم ﴿المحصنات﴾ العفيفات وأصل الإحصان المنع سميت العفيفة محصنة لأنها منعت نفسها عن القبيح ، ومنه الحصن لأنه يمنع من الأعداء ﴿يدرأ﴾ يدفع والدرء : الدفع ﴿تشيع﴾ شاع الأمر شيوعاً إذا فشا وظهر وانتشر ﴿عصبة﴾ العصبة : الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض .

سبب النزول : أ - روي أن امرأةً تُدعى « أم مهزول » كانت من البغايا فكانت تُسافح الرجل وتشرط أن تنفق عليه ، فأراد رجل من المسلمين أن يتزوجها فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿الزانيةُ لا ينكحها الا زانٍ أو مشرك﴾[1] الآية .

ب - عن ابن عباس أن « هلال بن أُمية » قذف امرأته عند النبي ﷺ بـ « شريك بن سحماء » فقال النبي ﷺ : (البينةُ أو حدٌّ في ظهرك) فقال يا رسول الله : إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟ والذي بعثك بالحق إني لصادقٌ ، ولينزلن الله ما يبرىء ظهري من الحد فنزلت ﴿والذين يرمون أزواجهم[2] . . .﴾ الآية .

التفسير : ﴿سورة أنزلناها﴾ أي هذه سورة عظيمة الشأن من جوامع سور القرآن أوحينا بها إليك يا محمد ﴿وفرضناها﴾ أي أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً ﴿وأنزلنا فيها آيات بينات﴾ أي أنزلنا فيها آياتٍ تشريعية ، واضحات الدلالة على أحكامها ، لتكون لكم - أيها المؤمنون - قبساً ونبراساً ، وتكريرُ لفظ الإنزال لإبراز كمال العناية بشأنها فكأنه يقول : ما أنزلتها عليكم لمجرد التلاوة وإنما أنزلتها للعمل والتطبيق ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي لكي تعتبروا وتتعظوا بهذه الأحكام وتعملوا بموجبها ، ثم شرع تعالى بذكر الأحكام وبدأ بحد الزنى فقال ﴿والزانيةُ والزاني فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائة جلدة﴾ أي فيما

(١) رواه أحمد والنسائي . (٢) رواه البخاري وانظر تتمة القصة في كتابنا روائع البيان ٢/ ٨٠ .

﴿مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾

شرعت لكم وفرضت عليكم أن تجلدوا كل واحدٍ من الزانيين ـ غير المحصنين ـ مائة ضربة بالسوط عقوبة لهما على هذه الجريمة الشنيعة ﴿ولا تأخذ كم بهما رأفة في ديـن الله﴾ أي لا تأخذكم بهما رقة ورحمة في حكم الله تعالى فتخففوا الضرب أو تنقصوا العدد بل أوجعوهما ضرباً قال مجاهد : لا تعطلوا حدود اللـه ولا تتركوا إقامتها شفقة ورحمة[1] ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ هذا من باب الإلهاب والتهييج أي إن كنتم مؤمنين حقاً تصدقون بالله وباليوم الآخر ، فلا تعطلوا الحدود ولا تأخذكم شفقة بالزناة ، فإن جريمة الزنى أكبر من أن تستدر العطف أو تدفع إلى الرحمة ﴿وليشهد عذابهما طائفـةٌ من المؤمنيـن﴾ أي وليحضر عقوبة الزانيين جماعةٌ من المؤمنين ، ليكون أبلغ في زجرهما ، وأنجع في ردعهما ، فإنَّ الفضيحة قد تنكل أكثر مما ينكل التعذيب ﴿الزاني لا ينكح إلا زانيـةً أو مشركـة﴾ أي الزاني لا يليق به أن يتزوج العفيفة الشريفة ، إنما ينكح مثله أو أخسَّ منه كالبغيّ الفاجر ، أو المشركة الوثنية ﴿والزانيةُ لا ينكحهـا إلا زانٍ أو مشـرك﴾ أي والزانية لا يليق أن يتزوج بها المؤمن العفيف ، إنما يتزوجها من هو مثلها أو أخسَّ منها ، كالزاني الخبيث أو المشرك الكافر ، فإن النفوس الطاهرة تأبى الزواج بالفواجر الفاسقات ، قال الإمام الفخر : «من أحسن ما قيل في تفسير هذه الآية : أنَّ الفاسقَ الخبيث ـ الذي من شأنه الزنى والفِسق ـ لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء ، وإنما يرغب في فاسقةٍ خبيثةٍ مثله أو في مشركة ، والفاسقة الخبيثة لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها ، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة والمشركين ، وهذا على الأعم الأغلب كما يقال : لا يفعل الخير إلا الرجل التقي ، وقد يفعل بعض الخير من ليس بتقيٍّ فكذا هنا[2]» ﴿وحُرِم ذلـك على المؤمنيـن﴾ أي وحرم الزنى على المؤمنين لشناعته وقبحه ، أو حرم نكاح الزواني على المؤمنين لما فيه من الأضرار الجسيمة[3] . . ثم شرع تعالى في بيان حد القذف فقال ﴿والذيـن يرمون المحصنـات﴾ أي يقذفون بالزنى العفيفات الشريفات ﴿ثم لم يأتـوا بأربعة شهـداء﴾ أي ثم لم يأتوا على دعواهم بأربعة شهود عدول يشهدون عليهن بما نسبوا إليهن من الفاحشة ﴿فاجلدوهـم ثمانين جلدة﴾ أي اضربوا كل واحدٍ من الرامين ثمانين ضربـةً بالسـوط ونحـوه ، لأنهـم كذبـة يتهمـون البريئات ، ويخوضون في أعراض الناس ﴿ولا تقبلـوا لهم شهـادة أبداً﴾ أي وزيدوا لهم في العقوبة بإهدار كرامتهم الإنسانية فلا تقبلوا شهادة أي واحدٍ منهم ما دام مصراً على كذبه وبهتانه ﴿وأولئك هم الفاسقـون﴾

---

(١) التفسير الكبير ٢٣/١٤٨ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٢٣/١٥٠ . (٣) قولان للمفسرين اختار الأول صاحب التسهيل واختار الثاني أبو السعود والقرطبي .

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

أي هم الخارجون عن طاعة الله عز وجل لإتيانهم بالذنب الكبير، والجرم الشنيع قال ابن كثير: أوجب تعالى على القاذف إذا لم يُقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام: أحدها أن يجلد ثمانين جلدة الثاني: أن ترد شهادته أبداً الثالث: أن يكون فاسقاً ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس[1] ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك﴾ أي إلا الذين تابوا وأنابوا وندموا على ما فعلوا من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم ﴿وأصلحوا﴾ أي أصلحوا أعمالهم فلم يعودوا إلى قذف المحصنات قال ابن عباس: أي أظهروا التوبة ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ أي فاعفوا عنهم واصفحوا وردُّوا إليهم اعتبارهم بقبول شهادتهم، فإن الله غفور رحيم يقبل توبة عبده إذا تاب وأناب وأصلح سيرته وحاله.. ثم ذكر تعالى حكم من قذف زوجته وهو المعروف باللعان فقال ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ أي يقذفون زوجاتهم بالزنى ﴿ولم يكن لهم شهداءُ إلا أنفسهم﴾ أي وليس لهم شهود يشهدون بما رموهنَّ به من الزنى سوى شهادة أنفسهم ﴿فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله﴾ أي فشهادة أحدهم التي تزيل عنه حدَّ القذف أربع شهادات بالله تقوم مقام الشهداء الأربعة ﴿إنه لمن الصادقين﴾ أي إنه صادقٌ فيما رمى به زوجته من الزنى ﴿والخامسةُ أن لعنة الله عليه﴾ أي وعليه أيضاً أن يحلف في المرة الخامسة بأن لعنة الله عليه ﴿إن كان من الكاذبين﴾ أي إن كان كاذباً في قذفه لها بالزنى ﴿ويدرأ عنها العذاب﴾ أي ويدفع عن الزوجة المقذوفة حدَّ الزنى الذي ثبت بشهادة الزوج ﴿أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين﴾ أي أن تحلف أربع مرات إنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنى ﴿والخامسة أنَّ غضب الله عليها إن كان من الصادقين﴾ أي وتحلف في المرة الخامسة بأنَّ غضب الله وسخطه عليها إن كان زوجها صادقاً في اتهامه لها بالزنى ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ أي ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم بالستر في ذلك، وجوابُ ﴿لولا﴾ محذوف لتهويل الأمر تقديره: لهلكتم أو لفضحكم أو عاجلكم بالعقوبة، ورب مسكوتٍ عنه أبلغ من المنطوق ﴿وأنَّ الله توابٌ حكيم﴾ أي وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة، حكيم في ما شرع من الأحكام ومن جملتها حكم اللعان قال أبو السعود: وجواب لولا محذوف لتهويله كأنه قيل: ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته بكم لكان ما كان ممّا لا يحيط به نطاق البيان ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حدُّ القذف مع أن الظاهر صدقه

(١) المختصر ٢/٥٨٣.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ (١٣)﴾

لاشتراكه في الفضيحة ، ولو جعل شهاداته موجبةً لحد الزنى عليها لفات النظر لها ، ولو جعل شهاداتها موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له ، فسبحانه ما أعظم شأنه ، وأوسع رحمته ، وأدقَّ حكمته[١] . . ثم بيَّن تعالى « قصة الإفك »[٢] التي اتهمت فيها العفيفة البريئة الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالكذب والبهتان فقال ﴿إن الذين جاءوا بالإفك﴾ أي جاءوا بأسوء الكذب وأشنع صور البهتان وهو قذف عائشة بالفاحشة قال الإمام الفخر : الإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء ، وقد أجمع المسلمون على أن المراد ما أُفك به على عائشة وهي زوجة الرسول المعصوم[٣] ﴿عُصبةٌ منكم﴾ أي جماعة منكم أيها المؤمنون وعلى رأسهم « ابن سلول » رأس النفاق ﴿لا تحسبوه شراً لكم﴾ أي لا تظنوا هذا القذف والاتهام شراً لكم يا آل أبي بكر ﴿بل هو خيرٌ لكم﴾ لما فيه من الشرف العظيم بنزول الوحي ببراءة أم المؤمنين ، وهذا غاية الشرف والفضل قال المفسرون : والخير في ذلك من خمسة أوجه : تبرئة أم المؤمنين ، وكرامة الله لها بإنزال الوحي في شأنها ، والأجر الجزيل لها في الفرية عليها ، وموعظة المؤمنين ، والانتقام من المفترين[٤] ﴿لكل امرىءٍ منهم ما اكتسب من الإثم﴾ أي لكل فردٍ من العُصبة الكاذبة جزاء ما اجترح من الذنب على قدر خوضه فيه ﴿والذي تولى كبره منهم﴾ أي والذي تولى معظمه وأشاع هذا البهتان وهو « ابن سلول » رأس النفاق ﴿له عذابٌ عظيم﴾ أي له في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم ﴿لولا إذْ سمعتموه﴾ اي هلاَّ حين سمعتم يا معشر المؤمنين هذا الافتراء وقذف الصديقة عائشة ﴿ظنَّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً﴾ أي هلاَّ ظنوا الخير ولم يسرعوا إلى التهمة فيمن عرفوا فيها النزاهة والطهارة ؟ فإن مقتضى الإيمان ألاَّ يصدق مؤمنٌ على أخيه قولة عائب ولا طاعن قال ابن كثير : هذا تأديبٌ من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السُّوء ، وهلا قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فإن كان لا يليق بهم فأمُّ المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى ، روي أن امرأة « أبي أيوب » قالت له : أما تسمع ما يقول الناسُ في عائشة ! قال : نعم وذلك الكذب ، أكنت فاعلةً ذلك يا أم ايوب ؟ قالت : لا والله قال فعائشة والله خيرمنك[٥] ، ﴿وقالوا هذا إفكٌ مبين﴾ أي قالوا في ذلك الحين هذا كذبٌ ظاهر مبين ﴿لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء﴾ أي هلاَّ جاء أولئك المفترون بأربعة شهود يشهدون على ما قالوا ﴿فإذْ لم يأتوا بالشهداء﴾ أي فإن عجزوا ولم يأتوا على دعواهم بالشهود ﴿فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾ أي فأولئك هم

(١) إرشاد العقل السليم ٤٨/٤ . (٢) انظر القصة مفصلة في كتابنا « روائع البيان » ١١٧/٢ . (٣) التفسير الكبير ١٧٢/٢٣ .
(٤) التسهيل في علوم التنزيل ٦١/٣ . (٥) مختصر ابن كثير ٥٩١/٢ .

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾

المفسدون الكاذبون في حكم الله وشرعه ، وفيه توبيخٌ وتعنيف للذين سمعوا الإفك ولم ينكروه أول وهلة ﴿ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة﴾ أي لولا فضله تعالى عليكم - أيها الخائضون في شأن عائشة - ورحمته بكم في الدنيا والآخرة حيث أمهلكم ولم يعاجلكم بالعقوبة ﴿لمسَّكم فيما أفضتم فيه﴾ أي لأصابكم ونالكم بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك ﴿عذاب عظيم﴾ أي عذاب شديد هائل يُستحقر دونه الجلد والتعنيف قال القرطبي : هذا عتابٌ من الله بليغٌ لمن خاضوا في الإفك ، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا ، ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً[1] ﴿إذْ تلقونه بألسنتكم﴾ أي وذلك حين تتلقونه ويأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه قال مجاهد : أي يرويه بعضكم عن بعض ، يقول هذا سمعته من فلان ، وقال فلانٌ كذا[2] ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علمٌ﴾ أي تقولون ما ليس له حقيقة في الواقع ، وإنما هو محض كذبٍ وبهتان ﴿وتحسبونه هيناً﴾ أي وتظنونه ذنباً صغيراً لا يلحقكم فيه إثم ﴿وهو عند الله عظيم﴾ أي والحال أنه عند الله من أعظم الموبقات والجرائم لأنه وقوع في أعراض المسلمين قال في التسهيل : عاتبهم تعالى على ثلاثة أشياء : الأول : تلقيه بالألسنة أي السؤال عنه والثاني : التكلم به والثالث : استصغاره حيث حسبوه هيناً وهو عند الله عظيم ، وفائدة قوله بألسنتكم وبأفواهكم الإشارة إلى أنَّ ذلك الحديث كان باللسان دون القلب لأنهم لم يعلموا حقيقته بقلوبهم[3] ﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ عتابٌ لجميع المؤمنين أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه أول سماعكم له وتقولوا لا ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿سبحانك هذا بهتانٌ عظيم﴾ أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسول الله الطاهرة البريئة فإن هذا الافتراء كذبٌ واضح ، عظيم الجرم قال الزمخشري : هو بمعنى التعجب من عظيم الأمر والاستبعاد له ، والأصل في ذلك أن يُسبِّح الله عند رؤية العجائب[4] ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً﴾ أي يذكركم الله ويعظكم بالمواعظ الشافية لكي لا تعودوا إلى مثل هذا العمل أبداً ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم حقاً مؤمنين فإن الإيمان وازع عن مثل هذا البهتان ، وفيه حثٌ لهم على الاتعاظ وتهييج ﴿ويبيِّنُ الله لكم الآيات﴾ أي ويوضح لكم الآيات الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب ، لتتعظوا وتتأدبوا بها ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عالم بما يصلح العباد ، حكيم في تدبيره وتشريعه ﴿إنَّ الذين يُحبون أن تشيع الفاحشة﴾ أي يريدون أن ينتشر الفعل القبيح المفرط في القبح

(١)القرطبي ١٢/ ٢٠٣ . (٢) المختصر ٢/ ٥٩١ . (٣) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ٦٢ . (٤) الكشاف ٣/ ٢٢٥ .

﴿فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

كإشاعة الرذيلة والزنى وغير ذلك من المنكرات ﴿في الذين آمنوا﴾ أي في المؤمنين الأطهار ﴿لهم عذابٌ أليمٌ في الدنيا والآخرة﴾ أي لهم عذاب موجع مؤلم في الدنيا بإقامة الحدِّ ، وفي الآخرة بعذاب جهنم قال الحسن : عنى بهذا الوعيد واللعن المنافقين فإنهم أحبوا وقصدوا إذاية الرسول ﷺ وذلك كفرٌ وملعون صاحبه[1] ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي هو تعالى عالمٌ بالخفايا والنوايا وأنتم لا تعلمون ذلك قال الإمام الفخر : وهذه الجملة فيها حسنُ الموقع بهذا الموضع ، لأن محبة القلب كامنةٌ ونحن لا نعلمها إلاّ بالأمارات أما الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شيء ، فصار هذا الذكر نهايةً في الزجر لأن من أحبَّ إشاعة الفاحشة وإن بالغَ في إخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه ويعلم قدر الجزاء عليه[2] ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمتُه وأنَّ الله رءوفٌ رحيم﴾ جواب ﴿لولا﴾ محذوف لتهويل الأمر أي لولا فضله تعالى على عباده ورحمته بهم لأهلكهم وعذّبهم ، وكان ما كان مما لا يكاد يتصوره الإنسان لأنه فوق الوصف والبيان .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التنكير للتفخيم ﴿سورةٌ أنزلناها﴾ أي هذه سورة عظيمة الشأن ، جليلة القدر أنزلها الله .

٢ ـ الإطناب بتكرير لفظ ﴿أنزلنا﴾ في قوله ﴿وأنزلنا فيها آيات بينات﴾ لإبراز كمال العناية بشأنها ، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام للعناية والاهتمام .

٣ ـ الاستعارة ﴿يرمون المحصنات﴾ أصل الرمي القذفُ بالحجارة أو بشيء صلب ثم استعير للقذف باللسان لأنه يشبه الأذى الحسّي ففيه استعارة لطيفة .

٤ ـ التهييج والإلهاب ﴿إن كنتم تؤمنون بالله﴾ كقولهم إن كنت رجلاً فأقدم .

٥ ـ صيغة المبالغة ﴿غفور رحيم﴾ و ﴿توّاب حكيم﴾ فإن « فعول ، وفعّال ، وفعيل » من صيغ المبالغة وكلها تفيد بلوغ النهاية في هذه الصفات .

٦ ـ الطباق بين ﴿الصادقين﴾ و ﴿الكاذبين﴾ .

٧ ـ حذف جواب ﴿لولا﴾ للتهويل في ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ وذلك حتى يذهب الوهم في تقديره كل مذهب فيكون أبلغ في البيان وأبعد في التهويل والزجر .

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٤٣٩ . (٢) التفسير الكبير ٢٣/ ١٨٣ .

٨ ـ الطباق ﴿لا تحسبوه شراً لكم بل هو خيرٌ لكم﴾ وكذلك ﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾ فقد طابق بين الشر والخير ، وبين الهيّن والعظيم .

٩ ـ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿لولا إذ سمعتموه ظنَّ المؤمنون﴾ والأصل أن يقال ظننتم وإنما عدل عنه مبالغة في التوبيخ وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظنَّ الخير بالمؤمنين .

١٠ ـ التحضيض ﴿لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء﴾ أي هلاَّ جاءوا وغرضُه التوبيخ واللوم .

١١ ـ التعجب ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ ففيه تعجب ممن يقول ذلك والأصل في ذكر هذه الكلمة ﴿سبحانك﴾ أن يُسبح الله تعالى عند رؤية العجيب من صنائعه ، تنزيهاً له من أن يخرج مثله عن قدرته ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه[١] .

فَائِدَة : لماذا بدأ الله في الزنى بالمرأة ، وفي السرقة بالرجل ؟ والجواب أن الزنى من المرأة أقبح ، وجرمه أشنع فبدأ بها ، وأما السرقة فالرجل عليها أجرأ وهو عليها أقدر ولذلك بدأ به ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ .

تَنْبِيه : في التعبير بالإحصان ﴿والذين يرمون المحصنات﴾ إشارة دقيقة إلى أنَّ قذف العفيف من الرجال أو النساء موجب لحدِّ القذف ، وأما إذا كان الشخص معروفاً بفجوره أو اشتهر بالاستهتار والمجون فلا حدَّ على قاذفه ، لأنه لا كرامة للفاسق الماجن . فتدبر السر الدقيق .

لَطِيفَة : لماذا عدل عن قوله ﴿تواب رحيم﴾ إلى قوله ﴿تواب حكيم﴾ مع أن الرحمة تناسب التوبة ؟ والجواب أن الله عز وجل أراد الستر على العباد بتشريع اللعان بين الزوجين ، فلو لم يكن اللعان مشروعاً لوجب على الزوج حدُّ القذف مع أن الظاهر صدقه ، ولو اكتفى بلعانه لوجب على الزوجة حدُّ الزنى ، فكان من الحكمة وحسن النظر لهما جميعاً أن شرع هذا الحكم ، ودرأ عنهما العذاب بتلك الشهادات ، فسبحانه ما أوسع رحمته ، وأجل حكمته !![٢] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطواتِ الشيطان . . إلى . . وموعظةً للمتقين﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣٤) .

المُنَاسَبَة : لما ذكر تعالى حادثة الإفك ، أتبعها بالتحذير من سلوك طريق الشيطان المتربص بالإنسان الذي يدعو إلى السوء والشر والفساد ، ثم ذكر تعالى آداب الاستئذان والزيارة لأن أهل الإفك إنما وجدوا السبيل إلى بهتانهم من حيث اتفقت الخلوة فصارت طريقاً للتهمة ، فأوجب تعالى ألاّ يدخل إنسان بيت غيره إلا بعد الاستئذان والسلام ، ثم أتبعها بآيات غضِّ البصر .

(١) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤١٩ .

(٢) انظر الحكمة التشريعية في الحدود الإسلامية بالتفصيل في كتابنا « تفسير آيات الأحكام » ٢/ ٥٢ .

اللغــة : ﴿يأتـل﴾ يحلف والألِيَّةُ : اليمـين ومنـه ﴿يؤلـون من نسـائهم﴾ أي يحلفـون ﴿المحصنات﴾ العفائف الشريفات الطاهرات جمع محصنة وهي العفيفة ﴿مبرءون﴾ منزهون والبـراءة : النزاهة مما نسب للإنسان من تهمة ﴿تستأنسوا﴾ تستأذنوا وأصله في اللغة : طلـبُ الأنس بالشيء قال الشاعر :

عوى الذئب فاستأنستُ للذئب إذْ عـوى وصوَّت إنسانٌ فكـدت أطيـر

﴿يغضُّوا﴾ غضَّ بصره :خفضه ونكَّسه وأصله إطباق الجفن على الجفن قال جرير :

فغُضَّ الطَّـرف إنـك من نمير فـلا كعبـاً بلغـت ولا كلابا

﴿خُمُرهن﴾ جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها ، وخمّروا الآنية أي غطوها ﴿جيوبهن﴾ جمع جيب وهو الصدر ﴿الإربة﴾ الحاجة إلى النساء .

سَبَبُ النّزول : أ ـ كان أبو بكر الصدّيق ينفق على « مسطح بن أُثاثة » لمسكنته وقرابته ، فلما وقع أمر الإفك وقال فيه مسطحٌ ما قال ، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعةٍ أبداً فأنزل الله ﴿ولا يأتـل أولوا الفضل منكم والسعـة . . ﴾ الآية فقال أبو بكر : واللهِ إني لأحبُ أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً(١) .

ب ـ عن علي كرم الله وجهه قال : مرَّ رجل على عهد رسول الله ﷺ في طريقٍ من طرقات المدينة ، فنظر إلى امرأةٍ ونظرت إليه ، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجاباً به ، فبينما الرجل يمشي إلى جانب حائط ينظر إليها إذ استقبله الحائط « أي صدمه الحائط » فشقَّ أنفه فقال : والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله ﷺ فأُعلمه أمري ، فأتاه فقصَّ عليه قصته فقال النبي ﷺ : هذا عقوبة ذنبك فأنزل الله ﴿قل للمؤمنين يغضـوا من أبصارهـم . . ﴾(٢) الآيات .

* ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾

التفسير :﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خُطُوات الشيطان﴾ أي يا من صدَّقتم بالله ورسوله لا تتبعوا آثار الشيطان ولا تسلكوا مسالكه بإشاعة الفاحشة ،والإصغاء إلى الإفك والقول به ﴿ومن يتَّبع خطوات الشيطان﴾ أي ومن يتبع سيرة الشيطان وطريقته ﴿فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾ أي فإن الشيطان يضل الإنسان ويغويه لأنه يأمر بالفحشاء وهي ما أفرط قبحه،والمنكر وهو ماينكره الشرع وتنفر منه العقول السليمة ﴿ولولا فضـل الله عليكم ورحمتـه﴾ أي لولا فضل الله عليكم أيهـا المؤمنـون بالتـوفيق للتوبـة الماحية للذنوب ، وبشرع الحدود المكفرة للخطايا ﴿ما زكى منكـم من أحدٍ أبداً﴾ أي ما تطهر أحـدٌ منـكم من الأوزار أبد الدهر ﴿ولكنَّ اللهُ يزكي من يشـاء﴾ أي ولكن الله بفضله ورحمته يطهر من يشاء بتوفيقه للتوبة

(١) القرطبي ١٢/٢٠٧ (٢) الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٤٠ .

عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ

النصوح وقبولها منه قال القرطبي : والغرض أن تزكيته لكم ، وتطهيره وهدايته إنما هي بفضله لا بأعمالكم[١] ﴿والله سميعٌ عليم﴾ أي سميع لأقوالكم عليم بنياتكم وضمائركم ﴿ولا يأْتل أولوا الفضل منكم والسعة﴾ أي لا يحلف أهل الفضل في الدين وأصحاب الغنى واليسار ﴿أن يؤْتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ أي أن لا يؤتوا أقاربهم من الفقراء والمهاجرين ما كانوا يعطونهم إيَّاه من الإحسان لذنب فعلوه ﴿ولْيعفُوا وليصفحوا﴾ أي وليعفوا عمّا كان منهم من جرم ، وليصفحوا عما بدر منهم من إساءة ،وليعودوا إلى ما كانوا عليه من الإنعام والإحسان ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ أي ألا تحبون أيها المؤمنون أن يغفر الله لكم على عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم ؟ روي أن أبا بكر لما سمع الآية قال : بلى أحب أن يغفر الله لي وأعاد النفقة إلى مسطح وكفَّر عن يمينه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً !! قال المفسرون : والآية دالة على فضل أبي بكر فإن الله تعالى امتدحه بقوله ﴿ولا يأتل أولوا الفضل﴾ وكفى به دليلاً على فضل الصدّيق رضي الله عنه وأرضاه ﴿والله غفور رحيم﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على العقاب ، ثم توعَّد تعالى الذين يرمون العفائف الطاهرات فقال ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات﴾ أي يقذفون بالزنى العفيفات ، السليمات الصدور ، النقيات القلوب عن كل سوء وفاحشة ﴿المؤمنات﴾ أي المتصفات بالإيمان مع طهارة القلب ﴿لعنوا في الدنيا والآخرة﴾ أي طردوا وأُبعدوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة قال ابن عباس : هذا اللعن فيمن قذف زوجات النبي ﷺ إذْ ليس له توبة ، ومن قذف مؤمنة جعل الله له توبة[٢] وقال أبو حمزة : نزلت في مشركي مكة ، كانت المرأة إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة قذفوها وقالوا خرجت لتفجر[٣] ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ أي ولهم مع اللعنة عذاب هائل لا يكاد يوصف بسبب ما ارتكبوا من إثم وجريمة ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملون﴾ أي وذلك العذاب الشديد في ذلك اليوم الرهيب ـ يوم القيامة ـ حين تشهد على الإنسان جوارحه فتنطق الألسنة والأيدي والأرجل بما اقترف من سيء الأعمال ﴿يومئذٍ يوفيهم الله دينهم الحق﴾ أي يوم القيامة ينالهم حسابهم وجزاؤهم العادل من أحكم الحاكمين ﴿ويعلمون أنَّ الله هو الحقُّ المبين﴾ أي ويعلمون حينئذٍ أن الله هو العادل الذي لا يظلم أحداً ، الظاهر عدله في تشريعه وحكمه . . ثم ذكر تعالى بالدليل القاطع ، والبرهان الساطع براءة عائشة ونزاهتها ، فهي زوجة رسول الله الطيب الطاهر وقد

(١) القرطبي ١٢/ ٢٠٧ (٢) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤٣٠ (٣) البحر ٦/ ٤٤٠

﴿ٱلْمُبِينُ ۝٢٥ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٢٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٢٧ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٢٨﴾

جرت سنة الله أن يسوق الجنس إلى جنسه ، فلو لم تكن عائشة طيبة لما كانت زوجة لأفضل الخلق ﷺ ولهذا قال ﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾ أي الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، وكذلك الطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء[1] ، وهذا كالدليل على براءة عائشة لأنها زوجة أشرف رسول وأكرم مخلوق على الله ، وما كان الله ليجعلها زوجة لأحبِّ عباده لو لم تكن عفيفة طاهرة شريفة ﴿أولئك مبرءون مما يقولون﴾ أي أولئك الفضلاء منزهون مما تقوله أهل الإفك في حقهم من الكذب والبهتان ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ أي لهم على ما نالهم من الأذى مغفرة لذنوبهم ، ورزقٌ كريم في جنات النعيم **قال ابن كثير** : وفيه وعدٌ بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم﴾ لما حذَّر تعالى من قذف المحصنات وشدد العقاب فيه ، وكان طريق هذا الاتهام مخالطة الرجال للنساء ، ودخولهم عليهن في أوقات الخلوات أرشد تعالى إلى الآداب الشرعية في دخول البيوت فأمر بالاستئذان قبل الدخول وبالتسليم بعده ﴿حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾ أي لا تدخلوا بيوت الغير حتى تستأذنوا وتسلموا على أهل المنزل ﴿ذلكم خيرٌ لكم﴾ أي ذلك الاستئذان والتسليم خير لكم من الدخُول بغتة ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي لتتعظوا وتعملوا بموجب هذه الآداب الرشيدة **قال القرطبي** : المعنى إن الاستئذان والتسليم خير لكم من الهجوم بغير إذن ومن الدخول على الناس بغتة أو من تحية الجاهلية فقد كان الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته قال : حُيِّيتم صباحاً ، وحُيِّيتم مساءً ودخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحافٍ ، وروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ أأستأذن على أمي ؟ قال نعم ، قال ليس لها خادمٌ غيري ، أأستأذن عليها كلما دخلتُ ؟ قال : أتحب أن تراها عريانة ؟ قال لا ، قال فاستأذن عليها[2] ﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً﴾ أي فإن لم تجدوا في البيوت أحداً يأذن لكم بالدخول إليها ﴿فلا تدخلوها حتى يُؤذن لكم﴾ أي فاصبروا ولا تدخلوها حتى يسمح لكم بالدخول ، لأن للبيوت حرمة ولا يحل دخولها إلا بإذن أصحابها ﴿وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا﴾ أي وإن لم يؤذن لكم وطلب منكم الرجوع فارجعوا ولا تلحُّوا ﴿هو أزكى لكم﴾ أي الرجوع أطهر وأكرم لنفوسكم وهو خير لكم من اللجاج والانتظار على الأبواب ﴿والله بما تعملون عليم﴾ أي هو تعالى عالم

(١) هذا قول ابن زيد وهو الأظهر وقال مجاهد : الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال وبالعكس ومراده أن كل كلام إنما يحسن في حق أهله فسيء الكلام إنما يليق بالأشرار والفجار الخ وما ذكرناه أوضح بياناً ، وأقرب منالاً . (٢) البيضاوي ٢/٥٧

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ﴾

بالخفايا والنوايا وبجميع أعمالكم فيجازيكم عليها قال القرطبي : وفيه توعدٌ لأهل التجسس على البيوت ، ثم إنه تعالى لما ذكر حكم الدور المسكونة ذكر بعده حكم الدور غير المسكونة فقال ﴿ليس عليكم جناح﴾ أي ليس عليكم إثمٌ وحرج ﴿أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة﴾ أي أن تدخلوا بغير استئذان بيوتاً لا تختص بسكنى أحد كالرباطات والفنادق والخانات قال مجاهد : هي الفنادق التي في طرق السابلة لا يسكنها أحد بل هي موقوفة ليأوي إليها كل ابن سبيل[1] ﴿فيها متاعٌ لكم﴾ أي فيها منفعة لكم أو حاجة من الحاجات كالاستظلال من الحر ، وإيواء الأمتعة والرحال ﴿والله يعلم ما تُبدون وما تكتمون﴾ أي يعلم ما تظهرون وما تُسرون في نفوسكم فيجازيكم عليه قال ابو السعود : وهذا وعيدٌ لمن يدخل مدخلاً لفسادٍ أو اطلاع على عورات[2] ، ثم أرشد تعالى إلى الآداب الرفيعة من غض البصر ، وحفظ الفروج فقال ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾ أي قل يا محمد لأتباعك المؤمنين يكفوا أبصارهم عن النظر إلى الأجنبيات من غير المحارم ، فإن النظرة تزرع في القلب الشهوة ، ورُبَّ شهوة أورثت حزناً طويلاً

كم نظرةٍ فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر

﴿ويحفظوا فروجهم﴾ أي يصونوا فروجهم عن الزنى وعن الإبداء والكشف ﴿ذلك أزكى لهم﴾ أي ذلك الغضُّ والحفظ أطهرُ للقلوب ، وأتقى للدين ، وأحفظ من الوقوع في الفجور ﴿إنَّ الله خبير بما يصنعون﴾ أي هو تعالى رقيبٌ عليهم ، مطلعٌ على أعمالهم ، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم ، فعليهم أن يتقوا الله في السر والعلن قال الإمام الفخر : فإن قيل فلم قدم غضَّ الأبصار على حفظ الفروج ؟ قلنا : لأن النظر بريد الزنى ، ورائد الفجور ، والبلوى فيه أشدُّ وأكثر ، ولا يكاد يُحترس منه[3] ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن﴾ أي وقل أيضاً للمؤمنات يكففن أبصارهن عن النظر إلى ما لا يحل لهن النظر اليه ، ويحفظن فروجهن عن الزنى وعن كشف العورات ، قال المفسرون : أكد تعالى الأمر للمؤمنات بغض البصر وحفظ الفروج ، وزادهن في التكليف على الرجال بالنهي عن إبداء الزينة إلا للمحارم والأقرباء فقال ﴿ولا يبدين زينتهن إلاَّ ما ظهر منها﴾ أي ولا يكشفن زينتهن للأجانب إلا ما ظهر منها بدون قصدٍ ولا نية سيئة قال ابن كثير : أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه ، كما قال ابن مسعود: الزينة زينتان : فزينةٌ لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار ، وزينةٌ يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب[4] ، وقيل : المراد به الوجه والكفان فإنهما ليسا بعورة قال البيضاوي : والأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر ، فإن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء

(١) القرطبي ١٢/٢٢١ .(٢) أبو السعود ٤/٥٥ .(٣) التفسير الكبير ٢٣/ ٢٠٥ (٤) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٠٠

بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

منها إلا لضرورة كالمعالجة وتحمل الشهادة[١] ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ أي وليلقين الخمار وهو غطاء الرأس على صدورهن لئلا يبدو شيء من النحر والصدر ، وفي لفظ الضرب مبالغة في الصيانة والتستر ، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يرحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل الله ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها[٢] قال المفسرون : كانت المرأة في الجاهلية ـ كما هي اليوم في الجاهلية الحديثة ـ تمر بين الرجال مكشوفة الصدر ، بادية النحر ، حاسرة الذراعين ، وربما أظهرت مفاتن جسمها وذوائب شعرها لتغري الرجال ، وكنَّ يسدلن الخُمُر من ورائهن فتبقى صدورهن مكشوفة عارية ، فأمرت المؤمنات بأن يلقينها من قدامهن حتى يغطينها ويدفعن عنهن شر الأشرار ﴿ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن﴾ أي ولا يظهرن زينتهن الخفية التي حرم الله كشفها إلا لأزواجهن ﴿أو آبائهن أو آباء بعولتهنَّ﴾ أي أو لآبائهن أو آباء أزواجهن وهو العم أبو الزوج فإنهما من المحارم ، فإن الأب يصون عرض ابنته ، ووالد الزوج يحفظ على ابنه ما يسوءه ، ثم عدد بقية المحارم فقال ﴿أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن﴾ فذكر تعالى الأبناء ، وأبناء الأزواج ، والإخوة ، وأبناء الإخوة ، وأبناء الأخوات وكلهم من المحارم الذين يحرم الزواج بهم لما جبل الله في الطباع من النفرة من مماسة القريبات ونكاحهن ﴿أو نسائهن﴾ أي المسلمات وخرج بذلك النساء الكافرات **قال مجاهد**: المراد نساؤهن المسلمات ، ليس المشركات من نسائهن ، وليس يحل للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي مشركة **وقال ابن عباس** : هن المسلمات ولا تبدي زينتها أمام يهودية أو نصرانية[٤] ﴿أو ما ملكت أيمانهن﴾ أي من الإماء المشركات **قال ابن جرير** : يعني من نساء المشركين فيجوز لها أن تظهر زينتها لها وإن كانت مشركة لأنها أمتها ﴿أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾ أي الخدام غير أولي الميل والشهوة والحاجة إلى النساء كالبُلْهِ والحمقى والمغفلين الذين لا يدركون من أمور الجنس شيئاً **قال مجاهد**: هو الأبله الذي يريد الطعام ولا يريد النساء ولا يهمه إلا بطنه ﴿أو الطفل الذي لم يظهروا على عورات النساء﴾ أي الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا حدَّ الشهوة ، ولا يعرفون أمور الجماع لصغرهم فلا حرج أن تظهر المرأة زينتها أمامهم ﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾ أي ولا يضربن بأرجلهن الأرض لئلا يسمع الرجال صوت الخلخال فيطمع الذي في قلبه مرض **قال ابن عباس** : كانت المرأة تمر

(١) البيضاوي ٢/٥٨ (٢) أخرجه البخاري . (٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٠١ وهذا قول أكثر السلف أن المراد بالنساء المؤمنات **قال الفخر الرازي** : وقيل المراد بالنساء جميع النساء فإنهن سواء في حل نظر بعضهن إلى بعض ، وقول السلف محمول على الاستحباب .

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرًاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنًا لِّتَبۡتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ

بالناس وتضرب برجلها ليسمع صوت خلخالها ، فنهى الله تعالى عن ذلك لأنه من عمل الشيطان ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ أي ارجعوا أيها المؤمنون إلى ربكم بامتثال الطاعات ، والكفّ عن الشهوات ، لتنالوا رضاه وتفوزوا بسعادة الدارين ﴿وأنكحوا الأيامى منكم﴾ أي زوجوا أيها المؤمنون من لا زوج له من الرجال والنساء من أحرار رجالكم ونسائكم **قال الطبري** : **الأيامى** جمع أَيِّم ، يوصف به الذكر والأنثى يقال : رجل أَيِّم وامرأة أَيِّمٌ إذا لم يكن لها زوج[1] ﴿والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾ أي وأنكحوا كذلك أهل التقى والصلاح من عبيدكم وجواريكم **قال البيضاوي** : وتخصيص الصالحين لأن إحصان دينهم والاهتمام بشأنهم أهم[2] ، وفيه إشارة إلى مكانة التقى والصلاح في الإنسان ﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾ أي إن يكن هؤلاء الذين تزوجونهم أهل فاقةٍ وفقر فلا يمنعكم فقرهم من إنكاحهم ، ففي فضل الله ما يغنيهم ﴿والله واسعٌ عليم﴾ أي واسع الفضل ، جواد كريم ، يعطي الرزق من يشاء وهو عليم بمصالح العباد **قال القرطبي** : وهذا وعدٌ بالغنى للمتزوجين طلباً لرضى الله ، واعتصاماً من معاصيه **وقال ابن مسعود** : التمسوا الغنى في النكاح وتلا هذه الآية[3] وفي الحديث (ثلاثة حقٌّ على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازي في سبيل الله)[4] ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً﴾ أي وليجتهد في العفة وقمع الشهوة الذين لا تتيسر لهم سبل الزواج لأسباب مادية ﴿حتى يغنيهم اللهُ من فضله﴾ أي حتى يوسع الله عليهم ويسهل لهم أمر الزواج ، فإن العبد إذا اتقى الله جعل له من أمره فرجاً ومخرجاً ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم﴾ أي والذين يريدون أن يتحرروا من رقّ العبودية بمكاتبة أسيادهم من العبيد والأرقاء ﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ أي فكاتبوهم على قدر من المال إن عرفتم منهم الأمانة والرشد ليصيروا أحراراً ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ أي أعطوهم مما أعطاكم الله من الرزق ليكون لهم عوناً على فكاك أنفسهم ﴿ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء﴾ أي لا تجبروا إماءكم على الزنى ﴿إن أردن تحصناً﴾ أي إن أردن التعفف عن مقارفة الفاحشة ، وليس هذا للقيد أو الشرط وإنما هو لبيان فظاعة الأمر وشناعته ، فالأصل في المملوكة أن يُحصنها سيدها أمّا أن يأمرها بالزنى وتمتنع وتريد العفة فذلك منتهى الخسة والدناءة منه **قال المفسرون**: نزلت في « عبد الله بن سلول » المنافق كان له جاريتان إحداهما تسمى « مُسَيْكة » والثانية تسمى « أميمة » فكان يأمرهما بالزنى للكسب ويضربهما على ذلك فشكتا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية ﴿لتبتغوا عرض

(١) الطبري ١٨/ ٩٨ (٢) البيضاوي ٢/ ٥٨ (٣) القرطبي ١٢/ ٢٤١ (٤) أخرجه أحمد والترمذي

﴿إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

الحيـاة الدنيا﴾ أي لأجل أن تنالوا حطام هذه الحياة الزائل ، وتحصلوا على المال بطريق الفاحشة والرذيلة ﴿ومن يكرههُنَّ فإن الله من بعد إكراههـن غفور رحيم﴾ أي ومن يجبرهن على الزنى فإن الله غفور لهن رحيم بهن لا يؤ اخذهن بالزنى لأنهن أُكرهن عليه وسينتقم ممن أكرههن شر انتقام ﴿ولقـد أنزلنـا إليكـم آياتٍ مبينـات﴾ أي والله لقد أنزلنا إليكم أيها المؤ منون آيات واضحات وأحكاماً مفصلات ﴿ومثلاً من الذين خلـوا من قبلكم﴾ وضربنا لكم الأمثال بمن سبقكم من الأمم لتتعظوا وتعتبروا ﴿وموعظة للمتقيـن﴾ أي وعظة وذكرى للمتقين .

البـلاغـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿لا تتبعوا خطوات الشيطـان﴾ شبَّه سلوك طريق الشيطان والسير في ركابه بمن يتتبع خطوات الآخر خطوة خطوة بطريق الاستعارة .

٢ ـ الإيجاز بالحذف ﴿أن يؤ توا﴾ أي أن لا يؤ توا حذفت منه ﴿لا﴾ لدلالة المعنى وهـو كثـير في اللغة .

٣ ـ صيغة الجمع للتعظيم ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ والمراد به أبو بكر الصدِّيق .

٤ ـ الجناس الناقص بين ﴿يعملون﴾ و ﴿يعلمون﴾ .

٥ ـ المقابلة اللطيفة بين ﴿الخبيثـات للخبيثين . . والطيبات للطيبين﴾ .

٦ ـ الطباق بين ﴿تبدون . . وتكتمون﴾ .

٧ ـ الإيجاز بالحذف ﴿يغُضُّوا من أبصارهـم﴾ لأن المراد غض البصر عما حرَّم الله لا عن كل شيء فحذف ذلك اكتفاءً بفهم المخاطبين .

٨ ـ المجاز المرسل ﴿ولا يبديـن زينتهن﴾ المراد مواقع الزينة وهو من باب إطلاق اسم الحال على المحل قال الزمخشري : وذكرُ الزينة دون مواقعها للمبالغة في الأمر بالتستر والتصون .

فـائـدة : قال بعض المحققين : إن يوسف لما رُمي بالفاحشة برّأه الله على لسان صبيٍ في المهد ، وإن مريم لما رُميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى عليه السلام ، وإن عائشة لما رُميت بالفاحشة برأها الله في كتابه العزيز ، فما رضي الله لها ببراءة صبيٍّ ولا نبيٍّ حتى برّأها الله في القرآن من القذف والبهتان[1] .

---

(١) القرطبي ١٢/٢١٢

تنبيه : السرُّ في تقديم غضّ البصر على حفظ الفروج ﴿يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ هو أن النظر بريد الزنى ورائد الفجور ، وهو مقدمة للوقوع في الخطر كما قال الشاعر :

وكنتَ إذا أرسلتَ طرفك رائداً ـ لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيتَ الذي لا كلُّه أنت قادرٌ عليه وعلى عن بعضه أنت صابر

لطيفة : ذكر أن قسِّيساً أراد أن ينال من المسلمين بالطعن في أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها ، فقال : إن الناس رموها بالإفك ولا ندري أهي بريئة أم متهمة ؟ فأجابه بعض الحاضرين بقوله : إسمعْ يا هذا ، هناك امرأتان اتهمتا بالزنى وقد برأهما القرآن الكريم ، إحداهما ليس لها زوج وقد جاءت بولد ، والأخرى لها زوج ولم يأتها ولد ـ يقصد مريم وعائشة ـ فأيتهما أحرى بالتهمة ؟ فخرس القسيس .

* * *

قال الله تعالى: ﴿اللهُ نورُ السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . . إلى . . فأولئك هم الفائزون﴾ من آية (٣٥) إلى نهاية آية (٥٢) .

المناسبة : لما وصف تعالى نفسه بأنه أنزل آياتٍ مبينات ، وأقام دلائل واضحات على وحدانيته ، واختصاصه بتشريع الأحكام التي بها سعادة المجتمع ، عقَّبه بذكر مثلين : أحدهما في بيان أنَّ دلائل الوحدانية والإيمان في غاية الظهور والثاني : في بيان أن أديان الكفرة في نهاية الظلمة والخفاء ، وبالمقارنة بين المثلين يتضح الصبح لذي عينين .

اللغة : ﴿مشكاة﴾ المشكاة : الكُوَّة في الحائط غير النافذة ، وأصلها الوعاء يجعل فيه الشيء ﴿دُرّي﴾ متلألىء وقّاد يشبه الدر في صفائه ولمعانه ﴿سراب﴾ السرابُ : ما يتراءى للعين وسط النهار عند اشتداد الحر يشبه الماء الجاري وليس بماء ، سمي سراباً لأنه يسرب أي يجري كالماء قال الشاعر :

فلما كففنا الحرب كانت عهودكم كلمع سراب بالفلا متألق[1]

﴿قيعة﴾قال الفراء :هو جمع قاع مثل جار وجيرة ، والقاعُ المنبسط المستوي من الأرض وقال الزمخشري : القِيعةُ بمعنى القاع وليس جمعاً[2] ، وهكذا قال أبو عبيدة ﴿لجّي﴾ اللُّجيُّ : الذي لا يدرك قعره لعمقه ، واللُّجةُ معظم الماء ، والجمع لُجَج ، والتجَّ البحر : تلاطمت أمواجه ﴿يزجي﴾ الإزجاء : سوقُ الشيء برفقٍ وسهولة ﴿ركاماً﴾ مجتمعاً يركب بعضه بعضاً ﴿الودق﴾ : المطر قال الليث : الودقُ المطر كله شديده وهينه[3] ﴿سنا﴾ : السنا الضوء واللمعان قال الشماخ :

وما كادت إذا رفعت سناها ليبصر ضوءها إلاّ البصير[4]

﴿مذعنين﴾ خاضعين منقادين ، أذعن للأمر خضع له ﴿يحيف﴾ يجور ويظلم .

(١) القرطبي ٢٨٢/١٢ .(٢) الفخر الرازي ٧/٢٤ .(٣) زاد المسير ٥/ ٥٢ .(٤) القرطبي ١٢/ ٢٩٠

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾

التفسير : ﴿الله نور السموات والأرض﴾ أي الله جلَّ وعلا منور السموات والأرض ، أنار السموات بالكواكب المضيئة ، والأرض بالشرائع والأحكام وبعثة الرسل الكرام قال **الطبري** : أي هادي أهل السموات والأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون ، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون[١] **وقال القرطبي** : النور عند العرب : الضوء المدرك بالبصر واستعمل مجازاً في المعاني فيقال كلامٌ له نور قال الشاعر :

نسبٌ كأن عليه من شمس الضحى ... نوراً ومن فلق الصباح عمودا

وقال جرير «وأنتَ لنا نورٌ وغيثٌ وعصمة» والناس يقولون : فلانٌ نور البلد ، وشمسُ العصر وقمره ، فيجوز أن يقال : الله نور على جهة المدح لأن جميع الأشياء منه ابتداؤها ، وعنه صدورها ، وبقدرته استقامت أمورها[٢] ، **وقال ابن عطاء الله**: «الكون كله ظلمة أناره ظهور الحق فيه ، إذ لولا وجود الله ما وجد شيء من العالم»[٣] وفي الحديث (اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن) **وقال ابن مسعود** : «ليس عند ربكم ليلٌ ولا نهار ، نور السموات والأرض نور وجهه» **وقال ابن القيم** : سمَّى الله سبحانه نفسه نوراً ، وجعل كتابه نوراً ، ورسوله نوراً ، واحتجب عن خلقه بالنور ، وقد فسرت الآية بأنه منور السموات والأرض ، وهادي أهل السموات والأرض ، وما قاله ابن مسعود أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادي أهل السموات والأرض ، وأما من فسرها بأنه منور السموات والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود[٤] ﴿مَثل نوره﴾ أي مثل نور الله سبحانه في قلب عبده المؤمن ﴿كمشكاة فيها مصباح﴾ أي ككوة في الحائط لا منفذ لها ليكون أجمع للضوء وضع فيها سراج ثاقب ساطع **قال في التسهيل** : المعنى صفةُ نور الله في وضوحه كصفة مشكاةٍ فيها مصباح على أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة والإنارة ، وإنما شبه بالمشكاة - وإن كان نورُ الله أعظم - لأن ذلك هو ما يدركه الناس من الأنوار ضرب لهم به المثل[٥] ﴿المصباح في زجاجة﴾ أي في قنديل من الزجاج الصافي ﴿الزجاجة كأنها كوكبٌ درّي﴾ أي تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها ﴿يوقد من شجرة مباركة﴾ أي يشعل ذلك المصباح من زيت شجرة مباركة ﴿زيتونة﴾ أي هي من شجر الزيتون الذي خصه الله بمنافع عديدة ﴿لا شرقيةٍ ولا غربية﴾ أي ليست في جهة الشرق ولا في جهة الغرب ، وإنما هي في صحراء منكشفة تصيبها الشمس طول النهار لتكون ثمرتها أنضج ، وزيتُها أصفى قال **ابن عباس** : هي شجرة بالصحراء لا يظلها شجر ، ولا جبلٌ ، ولا كهف ، ولا يواريها شيء وهو أجود لزيتها[٦] ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ مبالغة في وصف صفاء الزيت وحسنه وجودته أي يكاد زيتُ هذه الزيتونة يضيء من صفائه

(١) الطبري ١٨/ ١٠٥ وهذا قول ابن عباس ومجاهد واختاره الطبري . (٢) القرطبي ١٢/ ٢٥٦ . (٣) الحكم لابن عطاء الله السكندري. (٤) نقلاً عن محاسن التأويل . (٥) التسهيل ٣/ ٦٧ . (٦) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٠٦

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾

وحسن ضيائه ولو لم تمسَّه نار ، فكيف إذا مسته النار ؟ ﴿نـورٌ على نور﴾ أي نور فوق نور فقد اجتمع نور السراج ، وحسن الزجاجة ، وصفاء الزيت ، فاكتمل النور الممثل به ﴿يهدي الله لنوره من يشـاء﴾ أي يوفق الله لاتباع نوره ـ وهو القرآن ـ من يشاء من عباده ﴿ويضرب الله الأمثـال للناس﴾ أي يبين لهـم الأمثال تقريباً لأفهامهم ليعتبروا ويتعظوا بما فيها من الأسرار والحكم ﴿والله بكل شـيء عليم﴾ أي هو سبحانه واسع العلم لا يخفى عليه شيء من أمر الخلق ، وفيه وعدٌ ووعيد **قال الطبري**: ذلك مثلٌ ضربه الله للقرآن في قلب أهل الإيمان به فقال : مثل نور الله الذي أنار به لعبـاده سبيل الرشاد مثل كوة في الحائط لا منفذ لها فيها مصباح أي سراج ، وجعل السراج مثلاً لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات البينات ثم قال ﴿المصبـاح في زجاجة﴾ وذلك مثلٌ للقرآن في قلب المؤمـن الـذي أنـار اللـه صدره فخلص من الكفـر والشك ، ثم قال ﴿الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دري﴾ أي كأن الزجاجة في صفائها وضيائها كوكب يشبه الدر في الصفاء والضياء والحسن ﴿يوقد من شجرة مباركة لا شرقية ولا غربيـة﴾ أي تَوَقَّد هذا المصباح من دهن شجرة مباركة هي شجرة الزيتون ، ليست شرقية تطلع عليها الشمس بالعشي دون الغداة ، ولكن الشمس تشرق عليها وتغرب فيكون زيتها أجود وأصفى وأضوأ ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسـه نار﴾ أي يكاد زيت هذه الزيتونة يضيء من صفائه وحسن ضيائه وعنى بها أن حجج اللـه على خلقـه تكاد من بيانهـا ووضوحها تضيء لمن فكر فيها ونظر ولو لم يزدها الله بياناً ووضوحاً بنزول هذا القرآن ، فكيف وقد نبههم به وذكرهم بآياته فزادهم به حجة ! وذلك بيانٌ من الله ونور على البيان[1] . ثم لما ذكر تعالى هدايته لمن يشاء من عباده ، ذكر مواطن هذه العبادة وهي المساجد أحبُّ البقاع إلى الله فقال ﴿في بيوت أَذِنَ اللهُ أن تُرفـع﴾ أي أمر تعالى أن تبنى وتشاد على اسمه خاصة ، وان تعظَّم ويرفع شأنها لتكون منارات للهدى ومـراكز للإشعاع الروحي **قال ابن عباس** : المساجد بيوتُ الله في الأرض ، تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض[2] ﴿ويذكر فيها اسمـه﴾ أي يعبد فيها الله بتوحيده ، وذكره ، وتلاوة آياته ﴿يسبح له فيها بالغـدوّ والآصال﴾ أي يصلي لله تعالى في هذه المساجد في الصباح والمساء المؤمنون **قال ابن عباس** : كلُّ تسبيح في القرآن فهو صلاة[3] ﴿رجالٌ لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيـعٌ عن ذكر الله﴾ أي لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها عن ذكر ربهم ، ولا يلهيهم البيع والشراء عن طاعة الله **قال المفسرون** : نزلت هذه الآية في أهل الأسواق من الصحابة رضوان الله عليهم ، كانوا إذا سمعوا النداء تركوا كل شغل وبادروا لطاعة الله ﴿وإقام الصـلاة وإيتاء الزكـاة﴾ أي ولا تشغلهم الدنيا عن إقامة الصلاة في أوقاتها ، ودفع الزكاة للفقراء

(١) الطبري ١٨/ ١١٠ بشيء من الاختصار . (٢) التفسير الكبير ٢٤/ ٣ . (٣) الطبري ١٨/ ١١٣

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

والمستحقين بحدودها وشروطها ﴿يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ أي يخافون يوماً رهيباً تضطرب من شدة هوله وفزعه قلوب الناس وأبصارهم﴿ليجْزيهم الله أحسن ما عملوا﴾ أي ليكافئهم على أعمالهم في الدنيا بأحسن الجزاء ، ويجزيهم على الإحسان إحساناً ، وعلى الإساءة عفواً وغفراناً ﴿ويزيدهم من فضله﴾ أي يتفضل عليهم فوق ذلك الجزاء بما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي يعطي من شاء من خلقه عطاءً واسعاً بدون حدٍّ ولا عدٍّ يقال فلان ينفق بغير حساب أي يوسع كأنه لا يحسب ما ينفقه قال الإمام الفخر : نبه به على كمال قدرته ، وكمال جوده ، وسعة إحسانه ، فإنه سبحانه يعطيهم الثواب العظيم على طاعاتهم ، ويزيدهم الفضل الذي لا حد له في مقابلة خوفهم[1] ، ولما ذكر تعالى حال المؤمن وسعادته ، ذكر حال الكافر وخسارته ، وضرب لذلك مثلين : الأول لعمله والثاني لاعتقاده وتخبطه في الظلمات فقال ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة﴾ أي إن أعمال الكفار التي عملوها في الدنيا وظنوها أعمالاً صالحة نافعة لهم في الآخرة كالسراب الذي يرى في القيعان وهو ما يرى في الفَلَوات من ضوء الشمس في الهجيرة حتى يظهر كأنه ماء يجري على وجه الأرض ﴿يحسبه الظمآن ماء﴾ أي يظنه العطشان من بعيد ماءً جارياً ﴿حتى إذا جاءه﴾ أي حتى إذا وصل إليه ﴿لم يجده شيئاً﴾ أي لم ير ماءً ولا شراباً ، وإنما رآى سراباً فعظمت حسرته ﴿ووجد الله عنده فوفّاه حسابه﴾ أي وجدَ الله له بالمرصاد فوفّاه جزاء عمله ، فكذلك الكافر يحسب أن عمله ينفعه حتى إذا مات وقدم على ربه لم يجد شيئاً من الأعمال لأنها ذهبت هباءً منثوراً ﴿والله سريع الحساب﴾ أي يعجل الحساب لأنه لا يشغله محاسبة واحد عن آخر ﴿أو كظلمات في بحرٍ لجيٍّ﴾ هذا المثل الثاني لضلال الكفار والمعنى أو مثلهم كظلماتٍ متكاثفة في بحرٍ عميقٍ لا يدرك قعره ﴿يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ﴾ أي يغطي ذلك البحر ويعلوه موجٌ متلاطمٌ بعضه فوق بعض ﴿من فوقه سحاب﴾ أي من فوق ذلك الموج الثاني سحاب كثيف ﴿ظلمات بعضها فوق بعض﴾ أي هي ظلمات متكاثفة متراكمة بعضها فوق بعض قال قتادة : الكافر يتقلب في خمسٍ من الظلم : فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار[2] ﴿إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾ هذا من تتمة التمثيل أي إذا أخرج ذلك الإنسان الواقع في هذه الظلمات يده لم يقارب رؤيتها فإن ظلمة البحر ، وظلمة الموج ، وظلمة السحاب

---

(١) التفسير الكبير ٢٤/٦ (٢) الطبري ١٨/١١٦

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾

قد تكاثفت حتى حجبت عنه رؤية أقرب شيء إليه من شدة الظلمة فكذلك شأن الكافر يتخبط في ظلمات الكفر والضلال ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ أي ومن لم يهده الله للإيمان وينور قلبه بنور الإسلام لم يهتد أبد الدهر ، ذكر تعالى لعمل الكافر مثالين : الأول لعمله الصالح ومثّل له بالسراب الخادع ، والثاني لاعتقاده السيء ومثّل له بالظلمات المتراكم بعضُها فوق بعض ثم ختم الآية الكريمة ذلك الختام الرائع ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ مقابل قوله في المؤمن ﴿نور على نور﴾ فكان هذا التمثيل والبيان في غاية الحسن والجمال، فللّه ما أروع تعبير القرآن !! ولما وصف سبحانه أنوار قلوب وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد فقال ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض﴾ أي ألم تعلم يا محمد علماً يقيناً أنَّ الله العظيم الكبير يسبح له كل من في الكون من ملك ، وإنس ، وجن ، ينزهه ويقدسه ساكنوها ؟ ﴿والطير صافات﴾ أي والطير باسطاتٍ أجنحتهن حال الطيران تسبح ربها وتعبده كذلك بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه تعالى ﴿كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه﴾ أي كلٌّ من الملائكة والإنس والجن والطير قد أرشد وهدي إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله ، وما كلف به من الصلاة والتسبيح ﴿والله عليم بما يفعلون﴾ أي لا تخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم ﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ أي هو المالك والمتصرف في الكون ، وجميعُ المخلوقات تحت ملكه يتصرف فيهم تصرف القاهر الغالب ﴿وإلى الله المصير﴾ أي وإليه مرجع الخلائق فيجازيهم على أعمالهم وهو تذكير يتضمن الوعيد ، ثم أشار تعالى إلى ظاهرة كونية تدل على قدرته ووحدانيته فقال ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً﴾ أي يسوق بقدرته السحاب إلى حيث يشاء ﴿ثم يؤلف بينه﴾ أي يجمعه بعد تفرقه ﴿ثم يجعله ركاماً﴾ أي يجعله كثيفاً متراكماً بعضه فوق بعض ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ أي فترى المطر يخرج من بين السحاب الكثيف ﴿وينزل من السماء من جبالٍ فيها من برد﴾ أي وينزل من السحاب الذي هو كأمثال الجبال برداً ﴿فيصيب به من يشاء﴾ أي فيصيب بذلك البرد من شاء من العباد فيضره في زرعه وثمرته وماشيته ﴿ويصرفه عمن يشاء﴾ أي ويدفعه عمن يشاء فلا يضره **قال الصاوي** : كما ينزل المطر من السماء وهو نفعٌ للعباد كذلك ينزل منها البرد وهو ضرر للعباد ، فسبحان من جعل السماء منشأً للخير والشر[1] ﴿يكاد سنا برقه﴾ أي يقرب ضوء برق السحاب ﴿يذهب بالأبصار﴾ أي يخطف أبصار الناظرين من شدة

(١) الصاوي على الجلالين ٣/ ١٣٤

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

إضاءته وقوة لمعانه ﴿يقلب الله الليل والنهار﴾ أي يتصرف فيهما بالطول والقصر ، والظلمة والنور ، والحر والبرد ﴿إن في ذلك لعبرة﴾ أي إن فيما تقدم ذكره لدلالة واضحة ، وعظة بليغة على وجود الصانع المبدع ﴿لأولي الأبصار﴾ أي لذوي البصائر المستنيرة ، وخصهم بالذكر لأنهم المنتفعون حيث يتأملون فيجدون الماء والبرد ، والظلمة والنور تخرج من شيء واحد ، فسبحان القادر على كل شيء ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ استدل على وحدانيته بتسبيح أهل السماء والأرض ، ثم بتصريف السحاب وإنزال المطر ، ثم بأحوال الحيوانات **قال ابن كثير** : يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد[١] ﴿فمنهم من يمشي على بطنه﴾ أي فمنهم من يزحف على بطنه كالحية والزواحف ﴿ومنهم من يمشي على رجلين﴾ كالإنسان والطير ﴿ومنهم من يمشي على أربع﴾ كالأنعام وسائر الدواب **قال أبو حيان** : قدم ما هو أظهر في القدرة وأعجب وهو الماشي بغير آلة من رجل وقوائم ، ثم الماشي على رجلين ، ثم الماشي على أربع[٢] ﴿يخلق الله ما يشاء﴾ أي يخلق تعالى بقدرته ما يشاء من المخلوقات ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي هو قادر على ما يشاء لا يمنعه مانع ، ولا يدفعه دافع **قال الفخر** : واعلم أنَّ العقول قاصرة عن الإحاطة بأحوال أصغر الحيوانات على الكمال ، والاستدلال بها على الصانع ظاهرٌ ، لأنه لو كان الأمر بتركيب الطبائع الأربع لكان في الكل على السويّة ، فاختصاص كل واحدٍ من هذه الحيوانات بأعضائها وأعمارها ومقادير أبدانها لا بدَّ وأن يكون بتدبير قاهرٍ حكيم ، سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون[٣] ﴿لقد أنزلنا آيات بينات﴾ أي لقد أنزلنا إليكم أيها الناس آياتٍ واضحاتٍ ، دالات على طريق الحق والرشاد ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم﴾ أي يرشد من يشاء من خلقه إلى الدين الحق وهو الإسلام ، ولما ذكر دلائل التوحيد حذَّر من النفاق والمنافقين فقال ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا﴾ أي يقول المنافقون صدقنا بالله وبالرسول وأطعنا الله ورسوله ﴿ثم يتولى فريق منهم﴾ أي ثم يعرض جماعة منهم عن قبول حكمه ﴿من بعد ذلك﴾ أي من بعدما صدر منهم ما صدر من دعوى الإيمان ﴿وما أُولئك بالمؤمنين﴾ أي وليس أولئك الذين يدعون الإيمان والطاعة بمؤمنين على الحقيقة **قال الحسن** : نزلت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان ويسرون الكفر ﴿وإذا دُعوا إلى الله

---

(١) المختصر ٢/ ٦١٣ (٢) البحر ٦/ ٤٦٦ (٣) التفسير الكبير ٢٤/ ١٩

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ورسوله ليحكم بينهم﴾ أي وإذا دعوا إلى حكم الله أو حكم رسوله ﴿إذا فريق منهم معرضون﴾ أي استنكفوا وأعرضوا عن الحضور إلى مجلس الرسول ﴿وإن يكن لهم الحقُّ يأتوا إليه مذعنين﴾ أي وإن كان الحقُّ بجانبهم جاءوا إلى رسول الله طائعين منقادين لعلمهم أنه عليه السلام يحكم بالحقّ قال الفخر : نبّه تعالى على أنهم إنما يعرضون متى عرفوا أن الحقَّ لغيرهم ؛ أما إذا عرفوه لأنفسهم عدلوا عن الإعراض وأذعنوا ببذل الرضا[1] ﴿أفي قلوبهم مرضٌ أم ارتابوا﴾ أي هل في قلوبهم نفاقٌ ؟ أم شكوا في نبوته عليه السلام ؟ ﴿أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله﴾ أي أم يخافون أن يظلمهم رسول الله في الحكم ، والاستفهام للمبالغة في التوبيخ والذم كقول الشاعر :

ألستَ من القوم الذين تعاهدوا ... على اللؤم والفحشاء في سالف الدهر

﴿بل أولئك هم الظالمون﴾ أي بل هم الكاملون في الظلم والعناد لإعراضهم عن حكم رسول الله ﴿إنما كان قولَ المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ أي كان الواجب عليهم عندما يُدعون إلى رسول الله للفصل بينهم وبين خصومهم أن يسرعوا ويقولوا سمعاً وطاعة ، فلو كان هؤلاء مؤمنين لفعلوا ذلك قال الطبري : ولم يقصد به الخبر ولكنه تأنيبٌ من الله للمنافقين وتأديب منه لآخرين[2] ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي وأولئك المسارعون إلى مرضاة الله هم الفائزون بسعادة الدارين ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ أي ومن يطع أمر الله وأمر رسوله في كل فعلٍ وعمل ﴿ويخشى الله ويتقْه﴾ أي ويخاف الله تعالى لما فرط منه من الذنوب ، ويمتثل أوامره ويجتنب زواجره ﴿فأولئك هم الفائزون﴾ أي هم السعداء الناجون من عذاب الله الفائزون برضوانه . ذكر أن بعض بطارقة الروم سمع هذه الآية فأسلم وقال : إنها جمعت كل ما في التوراة والإنجيل .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ إطلاق المصدر على اسم الفاعل للمبالغة ﴿الله نور السموات﴾ بمعنى منوِّر لكل شيء بحيث كأنه عين نوره قال الشريف الرضي : وفي الآية استعارة ـ على تفسير بعض العلماء ـ والمراد عندهم أنه هادي أهل السموات والأرض بصوادع برهانه ، ونواصع بيانه كما يهتدى بالأنوار الثاقبة والشهب اللامعة .

(١) التفسير الكبير ٢٤/ ٢١. (٢) الطبري ١٨/ ١٢٠.

٢ ـ التشبيه التمثيلي ﴿مثل نـوره كمشكاةٍ فيها مصبـاح﴾ شبَّه نور الله الذي وضعه في قلب عبده المؤمن بالمصباح الوهّاج في كوة داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في الصفاء والحسن الخ سمي تمثيلياً لأن وجه الشبه منتزع من متعدد ، وهو من روائع التشبيه .

٣ ـ الإطناب بذكر الخاص بعد العام تنويهاً بشأنه ﴿عن ذكر الله وإقام الصـلاة﴾ لأن الصلاة من ذكر الله .

٤ ـ جناس الاشتقاق ﴿تتقلب فيه القلـوب﴾ .

٥ ـ التشبيه التمثيلي الرائع ﴿والذين كفروا أعمالهم كسـراب﴾ الخ وكذلك في قوله ﴿أو كظلماتٍ في بحـر لجي﴾ وهذا من روائع التشبيه وبدائع التمثيل .

٦ ـ الطباق بين ﴿يصيب به . . ويصرفه﴾ .

٧ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿يقلّب الله الليـل والنهار﴾ إذ ليس المراد التقليب المادي للأشياء الذاتية وإنما استعير لتعاقب الليل والنهار .

٨ ـ الجناس التام ﴿يذهب بالأبصـار﴾ ﴿لأولي الأبصـار﴾ المراد بالأولى العيون وبالثانيـة الألباب .

لطيفـة : سمع بعض علماء الطبيعة من غير المسلمين هذه الآية ﴿أو كظلماتٍ في بحـر لجيّ يغشاه مـوج . . .﴾ الآية فسأل هل ركب محمد البحر ؟ فقالوا : لا فقال أشهد أنه رسول الله قالوا : وكيف عرفت ؟ فقال : إنَّ هذا الوصف للبحر لا يعرفه الا من عاش عمره في البحار ، ورأى الأهوال والأخطار ، فلما أخبرت أنه لم يركب البحر عرفت أنه كلام الله تعالى .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وأقسمـوا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجنَّ . . إلى . . والله بكل شيء عليـم﴾ من آية (٥٣) إلى آية (٦٤) نهاية السورة الكريمة .

المنـاسـبـة : لما ذكر تعالى المنافقين وما هم عليه من صفاتٍ قبيحة ، أعقبه بذكر ما انطوت عليه نفوسهم من المكر والإحتيال والحلف الكاذب بأغلظ الأيمان ، وختم السورة الكريمة بالتحذير من سلوك طريق المنافقين .

اللغـة : ﴿الحُلم﴾ : الاحتلام في المنام قال في القاموس : الحلم : الـرؤيا جمعـه أحـلام ، والحُلم والاحتلام : الجماع في النوم[1] وقال الراغب : هو زمان البلوغ سمـي به لكون صاحبـه جديراً بالحلم أي الأناة وضبط النفس[2] ﴿القواعد﴾ جمع قاعد بغير تاء لأنه خاصٌ بالنساء كحائض وطامث وهي المرأة التي قعدت عن الزواج وعن الولد ﴿أشتاتاً﴾ متفرقين جمع شتّ وهو الافتراق ، والشتاتُ : الفرقة

(١) القاموس المحيط . (٢) المفردات للراغب الأصفهاني

﴿يتسللون﴾ التسلل : الخروج خفية يقال : انسلَّ وتسلل إذا خرج مستتراً بطريق الخفية ﴿لواذاً﴾ اللواذ : أن يستتر بشيء مخافة من يراه .

سَبَبُ النُّزول : روي أن رسول الله ﷺ بعث غلاماً من الأنصار يقال له : مُدْلج إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه فوجده نائماً ، فدقَّ عليه الغلام الباب ودخل ، فاستيقظ عمر وجلس فانكشف منه شيء فقال : وددت أنَّ الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول في هذه الساعات إلا بإذن ، ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ فوجد الآية قد أنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم . .﴾ فخرَّ ساجداً شكراً لله تعالى[٢]

* ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ

التفسِير : ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ أي حلف المنافقون بغاية الأيمان المغلَّظة ﴿لئن أمرتهم ليخرجنَّ﴾ أي لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن معك قال مقاتل : لما بيَّن الله إعراض المنافقين وامتناعهم عن قبول حكمه عليه السلام أتوه فقالوا : لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا ، وإن أمرتنا بالجهاد لجاهدنا فنزلت[١] ﴿قل لا تقسموا﴾ أي لا تحلفوا فإن أيمانكم كاذبة ﴿طاعةٌ معروفة﴾ أي طاعتُكم لله ورسوله معروفة فإنها باللسان دون القلب ، وبالقول دون العمل ﴿إنَّ الله خبيرٌ بما تعملون﴾ أي بصير لا يخفى عليه شيء من خفاياكم ونواياكم ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ أي أطيعوا الله بإخلاص النية وترك النفاق ، وأطيعوا الرسول بالاستجابة لأمره والتمسك بهديه ﴿فإن تولَّوا﴾ أي فإن تتولَّوْا وتعرضوا عن طاعته ﴿فإنما عليه ما حُمِّل﴾ أي على الرسول ما كلف به من تبليغ الرسالة ﴿وعليكم ما حمِّلتم﴾ أي وعليكم ما كلفتم به من السمع والطاعة واتباع أمره عليه السلام ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ أي وإن أطعتم أمره فقد اهتديتم إلى طريق السعادة والفلاح ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ أي ليس عليه إلا التبليغ الواضح للأمة ، ولا ضرر عليه إن خالفتم وعصيتم فإنه قد بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة ﴿وعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات﴾ أي وعد الله المؤمنين المخلصين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ أي وعدهم بميراث الأرض وأن يجعلهم فيها خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك في ممالكهم ، كما استخلف المؤمنين قبلهم فملكهم ديار الكفار قال المفسرون : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة رمتهم العرب عن قوسٍ واحدة ، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ، ولا يصبحون إلاّ في لأمتهم ـ أي سلاحهم ـ فقالوا أترون أنّا نعيش حتى نبيت

(١) تفسير الألوسي ١٨/ ٢٠٩ . (٢) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤٣٥

﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾

آمنين مطمئنين لا نخاف إلاّ الله عز وجل !! فنزلت الآية[١] ، وهذا وعدٌ ظهر صدقُه بفتح مشارق الأرض ومغاربها لهذه الأمة وفي الحديث بشارة كذلك فقد قال ﷺ : (إنَّ الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها)[٢] ﴿وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم﴾ أي وليجعلنَّ دينهم ـ الإسلام ـ الذي ارتضاه لهم عزيزاً مكيناً عالياً على كل الأديان ﴿وليبدِّلنَّهم من بعد خوفهم أمناً﴾ أي وليغيرن حالهم التي كانوا عليها من الخوف والفزع إلى الأمن والاستقرار كقوله ﴿وآمنهم من خوف﴾ ﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ استئنافٌ بطريق الثناء عليهم كالتعليل للاستخلاف في الأرض أي يوحدونني ويخلصون لي العبادة ، لا يعبدون إلهاً غيري ﴿ومن كفر بعد ذلك﴾ أي فمن جحد شكر هذه النعم ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ هم الخارجون عن طاعة الله ، العاصون أمر الله قال أبو العالية : أي من كفر بهذه النعمة وليس يعني الكفرَ بالله قال الطبري : وهو أشبه بتأويل الآية لأن اللهَ وعد الإنعام على هذه الأمة بما أخبر في هذه الآية بأنه منعم به عليهم ثم قال ﴿ومن كفر﴾ أي كفر هذه النعمة ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾[٣] ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي أقيموا أيها المؤمنون الصلاة وأدوا الزكاة على الوجه الأكمل الذي يُرضي الله ﴿وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾ أي أطيعوا الرسول في سائر ما أمركم به رجاء الرحمة ﴿لا تحسبنَّ الذين كفروا معجزين في الأرض﴾ تسليةٌ للنبي ﷺ ووعدٌ له بالنُّصرة أي لا تظننَّ يا محمد الكافرين الذين عاندوك وكذبوك معجزين لله في هذه الحياة بل الله قادرٌ عليهم في كل حين وأن ﴿ومأواهم النار﴾ أي مرجعهم نار جهنم ﴿ولبئس المصير﴾ أي بئس المرجع والمآل الذي يصيرون إليه ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكتْ أيمانكم﴾ أي يا أيها المؤمنون الذين صدَّقوا الله ورسوله وأيقنوا بشريعة الإسلام نظاماً وحكماً ومنهاجاً ليستأذنكم في الدخول عليكم العبيدُ والإماء الذين تملكونهم ملك اليمين ﴿والذين لم يبلغوا الحلُم منكم﴾ أي والأطفال الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال الأحرار ليستأذنوا أيضاً ﴿ثلاث مرات﴾ أي في ثلاثة أوقات ﴿من قبل صلاة الفجر﴾ أي في الليل وقت نومكم وخلودكم إلى الراحة ﴿وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة﴾ أي وقت الظهر حين تخلعون ثيابكم للقيلولة ﴿ومن بعد صلاة العشاء﴾ أي ووقت إرادتكم النوم واستعدادكم له ﴿ثلاث عورات لكم﴾ أي هي ثلاثة أوقات يختل فيها

(١) زاد المسير ٦/٥٧ . (٢) رواه مسلم . (٣) الطبري ١٨/١٤٢

﴿وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ﴾

تستركـم ، العوراتُ فيها بادية والتكشف فيها غالب ، فعلِّموا عبيدكم وخدمكم وصبيانكم ألاّ يدخلوا عليكم في هذه الأوقات إلا بعد الاستئذان ﴿ليس عليكم ولا عليهـم جناحٌ بعدهـن﴾ أي ليس عليكم ولا على المماليك والصبيان حرجٌ في الدخول عليكم بغير استئذان بعد هذه الأوقات الثلاثة ﴿طوّافون عليكم بعضكم على بعـض﴾ أي لأنهم خدمكم يطوفون عليكم للخدمة وغير ذلك قال أبو حيان : أي يمضون ويجيئون ويدخلون عليكم في المنازل غدوةً وعشية بغير إذن إلا في تلك الأوقات[1] ﴿كذلك يبيّن اللـه لكم الآيات﴾ أي مثل ذلك التوضيح والبيان يبيّن الله لكم الأحكام الشرعية لتتأدبوا بها ﴿والله عليـمٌ حكيم﴾ أي عالمٌ بأمور خلقه ، حكيمٌ في تدبيره لهم ﴿وإذا بلغ الأطفال منكـم الحلم﴾ أي وإذا بلغ هؤلاء الأطفال الصغار مبلغ الرجال وأصبحوا في سنّ التكليف ﴿فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهـم﴾ أي فعلموهم الأدب السامي أن يستأذنوا في كل الأوقات كما يستأذن الرجال البالغون ﴿كذلك يبيّن الله لكم آياته﴾ أي يفصّل لكم أمور الشريعة والدين ﴿والله عليم حكيـم﴾ أي عليم بخلقه حكيم في تشريعه قال البيضاوي : كرره تأكيداً ومبالغة في الأمر بالاستئذان[2] ﴿والقواعـدُ من النساء﴾ أي والنساء العجائز اللواتي قعدن عن التصرف وطلب الزواج لكبر سنهن ﴿اللاتـي لا يرجون نكاحـاً﴾ أي لا يطمعن في الزواج ولا يرغبن فيه لانعدام دوافع الشهوة فيهن ﴿فليس عليهـن جناح أن يضعن ثيابهـن﴾ أي لا حرج ولا إثم عليهنَّ في أن يضعن بعض ثيابهن كالرداء والجلباب ، ويظهرن أمام الرجال بملابسهن المعتادة التي لا تلفت انتباهاً ، ولا تثير شهوة ﴿غير متبرجـاتٍ بزينة﴾ أي غير متظاهرات بالزينة لينظر إليهن قال أبو حيان : وحقيقة التبرج إظهار ما يجب إخفاؤه ، وربَّ عجوزٍ شمطاء يبدو منها الحرصُ على أن يظهر بها جمال[3] ﴿وأنْ يستعففن خـيرٌ لهن﴾ أي وأن يستترن بارتداء الجلباب ولبس الثياب كما تلبسه الشابات من النساء ، مبالغةً في التستر والتعفف خيرٌ لهنَّ وأكرم ، وأزكى عند الله وأطهر ﴿والله سميـعٌ عليم﴾ أي يعلم خفايا النفوس ويجازي كل إنسانٍ بعمله ، وفيه وعدٌ وتحذير ﴿ليس على الأعمى حرجٌ ولا على الأعرج حرجٌ ولا على المريـض حرج﴾ أي ليس على أهل الأعذار « الأعمى ، والأعرج ، والمريض » حرج ولا إثم في القعود عن الغزو لضعفهم وعجزهم[4] ﴿ولا على أنفسكـم أن تأكلـوا من بيوتكم﴾ أي وليس عليكم أيها الناس إثم أن تأكلوا من بيوت

(١) البحر ٦/ ٤٧٢ . (٢) البيضاوي ٢/ ٦٢ . (٣) البحر ٦/ ٤٧٣ . (٤) هذا قول الحسن وابن زيد وهو الظاهر واختاره صاحب البحر والكشاف وقيل المراد نفي الحرج عن أهل الأعذار أن يأكلوا مع الأصحاء واختاره الطبري والرازي .

﴿بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ﴾

أزواجكم وعيالكم **قال البيضاوي** : فيدخل فيها بيوت الأولاد لأن بيت الولد كبيته لقوله عليه السلام : إن أطيبَ ما يأكل المرءُ من كسبه ، وإنَّ ولده من كسبه[1] **﴿أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم﴾** أي لا حرج في الأكل من بيوت هؤلاء الأقارب **قال الرازي** : والظاهر أن إباحة الأكل لا تتوقف على الاستئذان لأن العادة أن هؤلاء القوم تطيب أنفسهم بأكل الأقارب[2] **﴿أو ما ملكتم مفاتحه﴾** أي البيوت التي توكَّلون عليها وتملكون مفاتيحها في غياب أهلها قالت عائشة : كان المسلمون يذهبون مع رسول الله في الغزو ويدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم ويقولون : قد أحللنا لكم الأكل منها فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل ، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم وإنما نحن أمناء فأنزل الله **﴿أو ما ملكتم مفاتحه﴾**[3] **﴿أو صديقكم﴾** أي أو بيوت أصدقائكم وأصحابكم قال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه **﴿ليس عليكم جناحٌ أن تأكلوا جميعاً وأشتاتاً﴾** أي ليس عليكم إثم أو حرج أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين **قال المفسرون** : نزلت في حيٍ من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده ، يمكث يومه فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً ، وربما كانت معه الإبل الحُفَّل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه فأخبرهم تعالى بأن الرجل إذا أكل وحده لا حرج عليه **﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلّموا على أنفسكم﴾** أي إذا دخلتم بيوتاً مسكونة فسلموا على من فيها من الناس **﴿تحيةً من عند الله مباركة طيبةً﴾** أي حيُّوهم بتحية الإسلام « السلام عليكم » وهي التحية المباركة الطيبة التي شرعها الله لعباده المؤمنين **قال القرطبي** : وصفها بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب المودة ، ووصفها بالطيب لأن سامعها يستطيبها[4] **﴿كذلك يبيّن الله لكم الآياتِ لعلكم تعقلون﴾** **قال ابن كثير** : لما ذكر تعالى في هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة ، والشرائع المُبْرمة ، نبَّه عباده على أنه يبين لهم الآيات بياناً شافياً ليتدبروها ويتعقلوها لعلهم يعقلون[5] **﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله﴾** أي إنما المؤمنون الكاملون في الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله تصديقاً جازماً لا يخالجه شك **﴿وإذا كانوا معه على أمرٍ جامع﴾** أي وإذا كانوا مع الرسول في أمرٍ هام فيه مصلحة للمسلمين **﴿لم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾** أي لم يتركوا مجلسه حتى يستأذنوه فيأذن لهم قال

---

(١) البيضاوي ٢/ ٦٣ . (٢) التفسير الكبير ٢٤/ ٣٦ . (٣) ابن كثير ٢/ ٦١٩ المختصر
(٤) القرطبي ١٢/ ٣١٩ . (٥) ابن كثير ٢/ ٦٢٠ المختصر

﴿يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

المفسرون : نزلت هذه الآية في وقت حفر الخندق ، فإن بعض المؤمنين كانـوا يستأذنـون في الانصراف لضرورة ، وكان المنافقون يذهبون بغير استئذان فنزلت تمدح المؤمنين الخالصين ، وتُعرِّض بذم المنافقين **﴿إن الذيـن يستأذنونك أولئك الذين يؤمنـون بالله ورسوله﴾** هذا توكيدٌ لما تقدم ذكره تفخيماً وتعظيماً لشأن الرسولﷺ أي إن الذين يستأذنونك يا محمد أولئك هم المؤمنون حقاً قال البيضاوي : أعاده مؤكداً على أسلوب أبلغ فإن جعل المستأذنين هم المؤمنين عكس الأسلوب الأول وفيه تأكيد للأول بذكر لفظ الله ورسوله فيكون مصداقاً ودليلاً على صحة الايمان[١] **﴿فإذا استأذنوك لبعـض شأنهم﴾** أي فإذا استأذنك هؤلاء المؤمنون لبعض شئونهم ومهامهم[٢] **﴿فأذن لمن شئـت منهـم﴾** أي فاسمح لمن أحببت بالانصراف إن كان فيه حكمة ومصلحة **﴿واستغفر لهـم الله﴾** أي وادع الله لهم بالعفو والمغفرة فإن الاستئذان ولو لعذرٍ قصورٌ لأنه تقديم لأمر الدنيا على أمر الدين **﴿إن اللـه غفـور رحيـم﴾** أي عظيم العفو واسع الرحمة **﴿لا تجعلوا دعاء الرسـول بينكم كدعاء بعضكم بعضـاً﴾** أي لا تنادوا الرسول باسمه كما ينادي بعضكم بعضاً باسمه بل قولوا : يا نبيَّ الله ويا رسول الله تفخيماً لمقامه وتعظيماً لشأنه قال أبو حيان : لمّا كان التداعي بالأسماء على عادة البداوة أُمروا بتوقير رسول اللهﷺ ودعائه بأحسن ما يدعى به نحو يا رسول الله ، يا نبيَّ الله ، ألا ترى إلى بعض جفاةٍ من أسلم كان يقول يا محمد فنهوا عن ذلك[٣] قال قتادة : أمرهم تعالى أن يفخموه ويشرّفوه **﴿قـد يعلـم الله الذيـن يتسللـون منكم لواذاً﴾** أي قد علم الله الذين ينسلُّون قليلاً قليلاً ويخرجون من الجماعة في خفية يستتر بعضهم ببعض قال الطبري : واللواذ هو أن يلوذ القوم بعضهم ببعض ، يستتر هذا بهذا وهذا بهذا[٤] **﴿فليحـذر الذيـن يخالفون عن أمره﴾** أي فليخف الذين يخالفون أمر الرسول ويتركون سبيله ومنهجه وسنته **﴿أن تصيبهم فتنةٌ أو يصيبهـم عذاب أليـم﴾** أي تنزل بهم محنة عظيمة في الدنيا أو ينالهم عذاب شديد في الآخرة **﴿ألا إنَّ لله مـا في السموات والأرض﴾** أي له جل وعلا ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً **﴿قـد يعلم مـا أنتم عليه﴾** أي قد علم ما في نفوسكم من الإيمان أو النفاق ،

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٤٠

(٢) قال ابن عباس : « إن عمر استأذن النبيﷺ في العمرة فأذن له ثم قال :(يا أبا حفص لا تنسنا من صالح دعائك)»

(٣) البحر ٦/ ٤٧٦ (٤) الطبري ١٨/ ١٣٥

والإخلاص أو الرياء ﴿ويومَ يرجعون إليـه فينبئهم بما عملـوا﴾ أي ويوم القيامة يرجعون إليه فيخبرهم بما فعلوا في الدنيا من صغيرٍ وكبير ، وجليل وحقير ويجازي كلا بعمله ﴿والله بكـل شيءٍ عليـم﴾ أي لا يخفى عليه خافية لأن الكل خلقه وملكه .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿جَهْد أيمانهـم﴾ شبَّه الأيمان التي يحلف بها المنافقون بالغـين فيهـا أقصى المراتب في الشدة والتوكيد بمن يجهد نفسه في أمر شاقّ لا يستطيعه ويبذل أقصى وسعـه وطاقتـه بطـريق الاستعارة .

٢ ـ المشاكلة ﴿عليه ما حُمِّل وعليكـم ما حمِّلتم﴾ أي عليه أمرُ التبليغ وعليكم وزر التكذيب .

٣ ـ الطباق بين الخوف والأمن ﴿من بعد خوفهـم أمناً﴾ وكذلك بين الجميع والأشتات ﴿جميعاً أو أشتاتـاً﴾ لأن المعنى مجتمعين ومتفرقين .

٤ ـ الإطناب بتكرير لفظ الحرج لترسيخ الحكم في الأذهان ﴿ليس على الأعمـى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج﴾ .

٥ ـ صيغة المبالغة ﴿غفور رحيم﴾ .

فَـائِـدَة : قال بعض السلف : من أمَّر السُنَّة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمَّـر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لقوله تعالى ﴿وإن تطيعـوه تهتدوا﴾(١) .

لطيفَـة : قيل لبعضهم : من أحبُّ إليك أخوك أم صديقك ؟ فقال : لا أحب أخي إذا لم يكن صديقي . وقال ابن عباس : « الصديق أوكد من القريب ألا ترى استغاثة الجهنميِّين حين قالوا ﴿فما لنا من شافعين * ولا صديقٍ حميم﴾ ولم يستغيثوا بالآباء والأمهات »(٢) .

تـنبيـه : كان بعض العرب يرى أحدهم أن عاراً وخزياً عليه أن يأكل وحده ويبقى جائعاً حتى يجد من يؤ اكله ويشاربه واشتهر هذا عن حاتم فكان يقول :

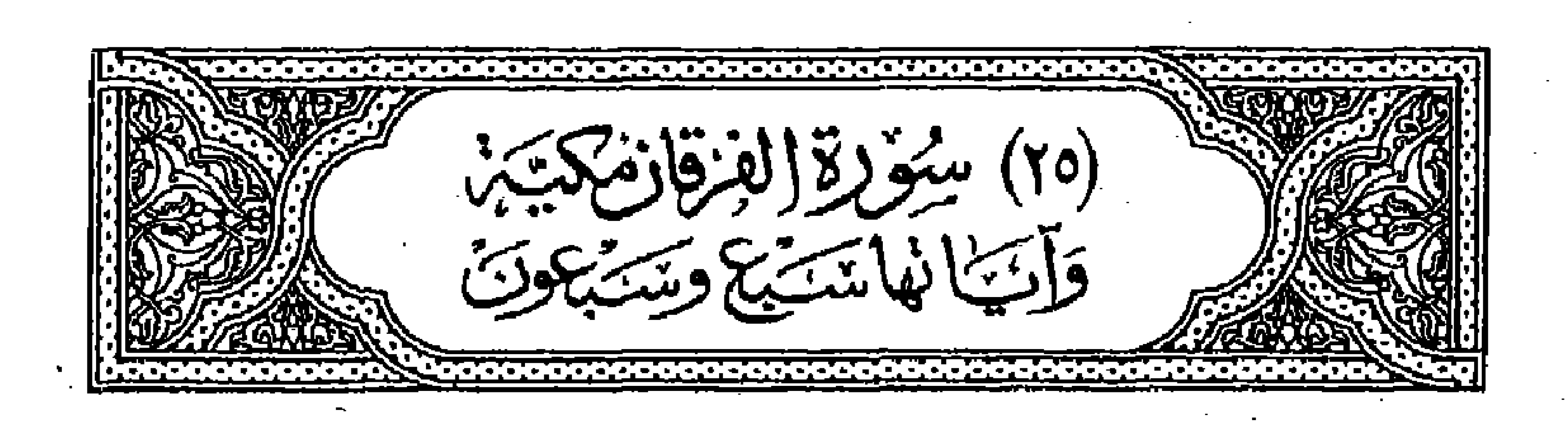
إذا ما صنعـتِ الـزاد فالتمسي له أكيلاً فإنـي لسـت آكلـه وحدي

وهذا من مآثر العرب ومفاخرهم ، فقد اشتهروا بالجود والكرم ، وقرى الضيـف .

« تم بحمد الله تفسير سورة النور »

* * *

(١) زاد المسير ٦/ ٥٧ (٢) البحر المحيط ٦/ ٤٧٤



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة الفرقان مكية وهي تعنى بشئون العقيدة ، وتعالج شبهات المشركين حول رسالة محمد ﷺ وحول القرآن العظيم ، ومحور السورة يدور حول إثبات صدق القرآن ، وصحة الرسالة المحمدية ، وحول عقيدة الايمان بالبعث والجزاء ، وفيها بعض القصص للعظة والاعتبار .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن الذي تفنَّن المشركون بالطعن فيه ، والتكذيب بآياته ، فتارة زعموا أنه أساطير الأولين ، وأُخرى زعموا أنه من اختلاق محمد أعانه عليه بعض أهل الكتاب ، وثالثة زعموا أنه سحرٌ مبين ، فردَّ الله تعالى عليهم هذه المزاعم الكاذبة ، والأوهام الباطلة ، وأقام الأدلة والبراهين على أنه تنزيل رب العالمين ، ثم تحدثت عن موضوع الرسالة التي طالما خاض فيها المشركون المعاندون ، واقترحوا أن يكون الرسول ملكاً لا بشراً ، وأن تكون الرسالة ـ على فرض تسليم الرسول من البشر ـ خاصة بذوي الجاه والثراء ، فتكون لإنسان غني عظيم ، لا لفقير يتيم ، وقد ردَّ الله تعالى شبهتهم بالبرهان القاطع ، والحجة الدامغة ، التي تقصم ظهر الباطل .

* ثم ذكرت الآيات فريقاً من المشركين عرفوا الحقَّ وأقرّوا به ، ثم انتكسوا إلى جحيم الضلال ، وذكرت منهم « عقبة بن أبي معيط » الذي أسلم ثم ارتد عن الدين بسبب صديقه الشقي « أُبي بن خلف » وقد سماه القرآن الكريم بالظالم ﴿ويوم يعضُّ الظالم على يديه﴾ الآية وسمَّى صديقه بالشيطان .

* وفي ثنايا السورة الكريمة جاء ذكر بعض الأنبياء إجمالاً وجاء الحديث عن أقوامهم المكذبين ، وما حلَّ بهم من النكال والدمار نتيجة لطغيانهم وتكذيبهم لرسل الله كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وأصحاب الرسّ وقوم لوط، وغيرهم من الكافرين الجاحدين، كما تحدثت السورة عن دلائل قدرة الله ووحدانيته، وعن عجائب صنعه وآثار خلقه في هذا الكون البديع ، الذي هو أثر من آثار قدرة الله ، وشاهد من شواهد العظمة والجلال .

* وختمت السورة ببيان صفات عباد الرحمن ، وما أكرمهم الله به من الأخلاق الحميدة التي استحقوا بها الأجر العظيم في جنات النعيم .

التسمية : سميت السورة الكريمة «سورة الفرقان» لأن الله تعالى ذكر فيها هذا الكتاب المجيد الذي أنزله على عبده محمد ﷺ ، وكان النعمة الكبرى على الإنسانية لأنه النور الساطع والضياء المبين ، الذي فرق الله به بين الحق والباطل ، والنور والظلام ، والكفر والإيمان ، ولهذا كان جديراً بأن يسمى الفرقان .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ

اللغة : ﴿تبارك﴾ من البركة وهي كثرة الخير وزيادته ويأتي بمعنى التمجيد والتعظيم قال الشاعر :

تباركت لا معطٍ لشيء منعته وليس لما أعطيت يا رب مانع[1]

﴿نذيراً﴾ النذير : المحذِّر من الهلاك ﴿نشوراً﴾ النشور : الإحياء بعد الموت ﴿مقرنين﴾ مربوطين بالسلاسل قال عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأُبنا بالملوك مقرَّنينا[2]

﴿ثبوراً﴾ هلاكاً ودماراً ﴿بوراً﴾ مأخوذ من البوار وهو الهلاك قال أبو عبيدة : يقال رجلٌ بور ورجال بور ومعناه هالك ، والبوار الهلاك[3] .

التفسير : ﴿تبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده﴾ أي تمجَّد وتعظَّم وتكاثر خير الله الذي نزَّل القرآن العظيم الفارق بين الحق والباطل على عبده محمد ﷺ ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ أي ليكون محمد نبياً للخلق أجمعين مخوفاً لهم من عذاب الله ﴿الذي له ملكُ السموات والأرض﴾ أي هو تعالى المالك لجميع ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً وعبيداً ﴿ولم يتخذ ولداً﴾ أي وليس له ولدٌ كما زعم اليهود والنصارى ﴿ولم يكن له شريكٌ في الملك﴾ أي وليس معه إله كما قال عبدة الأوثان ﴿وخلق كل شيء فقدَّره تقديراً﴾ أي أوجد كل شيء بقدرته مع الإتقان والإحكام قال في التسهيل : الخلق عبارة عن الإيجاد بعد العدم ، والتقدير عبارةٌ عن اتقان الصنعة وتخصيص كل مخلوق بمقداره وصنعته ، وزمانه ومكانه ، ومصلحته وأجله وغير ذلك[4] وقال الرازي : وصف سبحانه ذاته بأربع أنواع من صفات الكبرياء : **الأول** : أنه المالك للسموات والأرض وهذا كالتنبيه على وجوده **والثاني** : أنه هو المعبود أبداً **والثالث** : أنه المنفرد بالألوهية **والرابع** : أنه الخالق لجميع الأشياء مع الحكمة والتدبير[5] ﴿واتخذوا من دونه آلهة﴾ أي

(١) البيت للطرماح وانظر البحر ٦/ ٤٨٠ . (٢) القرطبي ١٣/ ٨ . (٣) التفسير الكبير ٢٤/ ٦٣ . (٤) التسهيل ٣/ ٧٤ . (٥) التفسير الكبير ٢٤/ ٤٦ .

﴿شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾

عبد المشركون غير الله من الأوثان والأصنام ﴿لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون﴾ أي لا يقدرون على خلق شيء أصلاً بل هم مصنوعون بالنحت والتصوير فكيف يكونون آلهة مع الله ؟ ﴿ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً﴾ أي لا يستطيعون دفع ضر عنهم ولا جلب نفع لهم ﴿ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً﴾ أي لا تملك أن تُميت أحداً ، ولا أن تُحيي أحداً ولا أن تبعث أحداً من الأموات قال الزمخشري : المعنى أنهم آثروا على عبادة الله عبادة آلهة لا يقدرون على شيء ، وإذا عجزوا عن دفع الضرر وجلب النفع الذي يقدر عليه العباد كانوا عن الموت والحياة والنشور الذي لا يقدر عليها إلا الله أعجز[1] ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفكٌ افتراه﴾ أي وقال كفار قريش ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد من تلقاء نفسه ﴿وأعانه عليه قومٌ آخرون﴾ أي وساعده على هذا الاختلاق قومٌ من أهل الكتاب ﴿فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾ أي جاءوا بالظلم والبهتان حيث جعلوا العربي يتلقَّنُ من العجمي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب فكان كلامهم فيه محض الكذب والزور ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها﴾ أي وقالوا في حق القرآن أيضاً إنه خرافات الأمم السابقين أمر أن تُكتب له ﴿فهي تُملى عليه بكرةً وأصيلاً﴾ أي فهي تُلقى وتُقرأ عليه ليحفظها صباحاً ومساءً قال ابن عباس : والقائل هو «النضر بن الحارث» وأتباعه والإفكُ أسوأ الكذب[2] ﴿قل أنزله الذي يعلم السرَّ في السموات والأرض﴾ هذا ردٌّ عليهم في تلك المزاعم أي قل لهم يا محمد أنزله الله العليم القدير الذي لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض ﴿إنه كان غفوراً رحيماً﴾ أي إنه تعالى لم يعجِّل لكم العقوبة بل أمهلكم رحمة بكم لأنه واسع المغفرة رحيم بالعباد ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ أي وقال المشركون ما لهذا الذي يزعم الرسالة يأكل الطعام كما نأكل ، ويمشي في الأسواق لطلب المعاش كما نمشي ؟ إنه ليس بمَلَك ولا مَلِك ، لأن الملائكة لا تأكل ، والملوك لا تتبذّل في الأسواق ، وفي قولهم ﴿ما لهذا الرسول﴾ مع إنكارهم لرسالته تهكم واستهزاء ﴿لولا أُنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ أي هلاّ بعث الله معه ملكاً ليكون له شاهداً على صدق ما يدعيه! ﴿أو يُلقى إليه كنز﴾ أي يأتيه كنزٌ من السماء فيستعين به ويستغني عن طلب المعاش ﴿أو تكون له جنةٌ يأكل منها﴾ أي يكون له بستان يأكل من ثماره ﴿وقال الظالمون إن

(١) الكشاف ٣/ ١١٥ . (٢) البحر ٦/ ٤٨١ .

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾

تتّبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾ أي وقال الكافرون ما تتبعون أيها المؤمنون إلا إنساناً سحر فغلب على عقله فهو يزعم أنه رسول الله ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلُّوا﴾ أي انظر كيف قالوا في حقك يا محمد تلك الأقاويل العجيبة ، الجارية لغرابتها مجرى الأمثال ! وكيف اخترعوا تلك الصفات والأحوال الشاذة فضلُّوا بذلك عن الهدى ! ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾ أي فلا يجدون طريقاً الى الحق بعد أن ضلوا عنه بتكذيبك وإنكار رسالتك ، ذكروا له عليه الصلاة والسلام خمس صفات وزعموا أنها تُخلُّ بالرسالة زعماً منهم أنَّ فضيلة الرسول على غيره تكون بأمورٍ جسمانية وهي غاية الجهالة والسفاهة فردَّ الله عليهم بأمرين : الأول : تعجيب الرسول ﷺ من تناقضهم فتارة يقولون عنه شاعر ، وتارة ساحر ، وأُخرى يقولون إنه مجنون حتى أصبحت تلك الأقوال الغريبة الشاذة ، والأمور العجيبة جارية مجرى الأمثال والثاني : أن الله تعالى لو أراد لأعطى نبيَّه خيراً مما اقترحوا وأفضل مما يتصورون وهو المراد بقوله ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ أي تمجَّد وتعظَّم الله الكبير الجليل الذي لو أراد لجعل لك خيراً من ذلك الذي ذكروه من نعيم الدنيا ﴿جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾ أي لو شاء لأعطاك بساتين وحدائق تسير فيها الأنهار لا جنةً واحدة كما قالوا ﴿ويجعل لك قصوراً﴾ أي ويجعل لك مع الحدائق القصور الرفيعة المشيدة كما هو حال الملوك قال الضحاك : لما عيَّر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة حزن عليه السلام فنزل جبريل معزياً له فبينما النبي وجبريل يتحدثان إذ فُتح باب من السماء فقال جبريل : أبشرْ يا محمد هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضى من ربك فسلَّم عليه وقال: ربك يخيِّرك بين أن تكون نبياً ملكاً، وبين أن تكون نبياً عبداً ـ ومعه سفط من نور يتلألأ ـ ثم قال: هذه مفاتيح خزائن الأرض فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير فأومأ بيده أن تواضع فقال رسول الله ﷺ «بل نبياً عبداً» فكان عليه السلام بعد ذلك لا يأكل متكأ حتى فارق الدنيا[1] ﴿بل كذبوا بالساعة﴾ أي بل كذبوا بالقيامة ﴿واعتدنا لمن كذَّب بالساعة سعيراً﴾ أي وهيأنا لمن كذَّب بالآخرة ناراً شديدة الاستعار قال الطبري : المعنى ما كذب هؤلاء المشركون بالله وأنكروا ما جئتهم به من الحق من أجل أنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق ولكنْ من أجل أنهم لا يوقنون بالمعاد تكذيباً منهم بالقيامة وأعددنا لمن كذَّب بالبعث ناراً تُسعَّر عليهم وتتّقد[2] ﴿إذا رأتهم من مكانٍ بعيد﴾ أي إذا رأت جهنم هؤلاء المشركين من مسافة بعيدة وهي خمسمائة عام ﴿سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ أي سمعوا صوت لهيبها وغليانها كالغضبان إذا غلا صدره من الغيظ وسمعوا لها صوتاً كصوت الحمار وهو الزفير قال ابن عباس : إن الرجل ليجرُّ إلى النار فتشهق إليه النار شهوق البغلة الى الشعير ،

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٤٤ . (٢) الطبري ١٨/ ١٤٠ .

﴿وَإِذَآ أُلۡقُوا۟ مِنۡهَا مَكَانࣰا ضَيِّقࣰا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡا۟ هُنَالِكَ ثُبُورࣰا ﴿١٣﴾ لَّا تَدۡعُوا۟ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورࣰا وَٰحِدࣰا وَٱدۡعُوا۟ ثُبُورࣰا كَثِيرࣰا ﴿١٤﴾ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءࣰ وَمَصِيرࣰا ﴿١٥﴾ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدࣰا مَّسۡـُٔولࣰا ﴿١٦﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ

وتزفر زفرةً لا يبقى أحدٌ إلاّ خاف[1] ، وتقييد الرؤية بالبعد ﴿من مكان بعيد﴾ فيه مزيد تهويل لأمرها ﴿وإذا أُلقوا منها مكاناً ضيقاً﴾ أي وإذا أُلقوا في جهنم في مكانٍ ضيّق قال ابن عباس : تضيق عليهم ضيق الزُّج في الرُّمح[2]- الزُّج : الحديدة التي في أسفل الرمح - ﴿مقرَّنين﴾ أي مصفَّدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ﴿دعوا هنالك ثبوراً﴾ أي دعوا في ذلك المكان على أنفسهم بالويل والهلاك يقولون : يا هلاكنا ، نادوه نداء المتمني للهلاك ليسلموا مما هو أشدُّ منه كما قيل : أشدُّ من الموت ما يتمنى معه الموت ﴿لا تدعوا اليوم ثُبُوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ أي يقال لهم : لا تدعوا اليوم بالهلاك على أنفسكم مرةً واحدة بل ادعوا مراتٍ ومراتٍ ، فإن ما أنتم فيه من العذاب الشديد يستوجب تكرير الدعاء في كل حين وآن ، وفيه إقناطٌ لهم من استجابة الدعاء وتخفيف العذاب ﴿قل أذلك خيرٌ أم جنة الخلد التي وعد المتقون﴾؟ أي قل لهم يا محمد على سبيل التقريع والتهكم أذلك السعير خيرٌ أم جنة الخلود التي وعدها المتقون ؟ قال ابن كثير : يقول الله تعالى يا محمد : هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء الذين تتلقاهم جهنم بوجهٍ عبوسٍ وتغيظٍ وزفير ، ويلقون في أماكنها الضيقة مقرّنين لا يستطيعون حراكاً ولا فكاكاً مما هم فيه ، أهذا خيرٌ أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده[3]؟ قال الإمام الفخر : فإن قيل كيف يقال العذاب خيرٌ أم جنة الخلد ؟ وهل يجوز أن يقول العاقل : السُكر أحلى أم الصبر ؟ قلنا : هذا يحسن في معرض التقريع كما إذا أعطى السيد عبده مالاً فتمرَّد وأبى واستكبر فيضربه ضرباً وجيعاً ويقول على سبيل التوبيخ : أهذا أطيب أم ذاك[4] ؟ ﴿كانت لهم جزاءً ومصيراً﴾ أي كانت لهم ثواباً ومرجعاً ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾ أي لهم في الجنة ما يشاءون من النعيم ﴿خالدين﴾ أي ماكثين فيها أبداً سرمداً بلا زوال ولا انقضاء ﴿كان على ربك وعداً مسؤولاً﴾ أي كان ذلك الجزاء وعداً على ذي الجلال حقيقاً بأن يُسأل ويُطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون ، وهو وعدٌ واجب ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله﴾ أي واذكر ذلك اليوم الرهيب - يوم القيامة - حين يجمع الله الكفار والأصنام وكل من عُبد من دون الله كالملائكة والمسيح قال مجاهد : هو عيسى وعزير والملائكة ﴿فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء﴾ أي فيقول تعالى للمعبودين تقريعاً لعبدتهم : أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم ؟ ﴿أم هم ضلُّوا السبيل﴾ أي أم هم ضلوا الطريق فعبدوكم من تلقاء أنفسهم ؟ ﴿قالوا سبحانك﴾ أي قال

(١) ابن كثير ٢/ ٦٢٦ المختصر . (٢) البحر ٦/ ٤٨٥ . (٣) ابن كثير ٢/ ٦٢٦ . (٤) التفسير الكبير ٢٤/ ٥٧ .

نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

المعبودون تعجباً مما قيل لهم : تنزَّهت يا الله عن الأنداد ﴿ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء﴾ أي ما يحقُّ لنا ولا لأحدٍ من الخلق أن يعبد غيرك ، ولا أن يشرك معك سواك ﴿ولكنْ متَّعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر﴾ أي ولكن أكثرت عليهم وعلى آبائهم النعمة ـ وكان يجب عليهم شكرها والإيمان بما جاءت به الرسل ـ فكان ذلك سبباً للإعراض عن ذكرك وشكرك ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ أي وكانوا قوماً هالكين ، قال تعالى توبيخاً للكفرة ﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾ أي فقد كذبكم هؤلاء المعبودون في قولكم إنهم آلهة ﴿فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً﴾ أي فما تستطيعون أيها الكفار دفعاً للعذاب عنكم ولا نصراً لأنفسكم من هذا البلاء ﴿ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً﴾ أي ومن يشرك منكم بالله فيظلم نفسه نذقه عذاباً شديداً في الآخرة ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد أحداً من الرسل إلا وهم يأكلون ويشربون ويتجولون في الأسواق للتكسب والتجارة ، فتلك هي سنة المرسلين من قبلك فلم ينكرون ذلك عليك ؟ وهو جواب عن قولهم ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام﴾ ؟ ﴿وجعلنا بعضكم لبعضٍ فتنة أتصبرون﴾ أي جعلنا بعض الناس بلاءً لبعض ومحنة ، ابتلى الله الغنيَّ بالفقير ، والشريف بالوضيع ، والصحيح بالمريض ليختبر صبركم وإيمانكم أتشكرون أم تكفرون ؟ قال الحسن : يقول الأعمى لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان ، ويقول الفقير لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان ، ويقول السقيم : لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان[1] ﴿وكان ربك بصيراً﴾ أي عالماً بمن يصبر أو يجزع ، وبمن يشكر أو يكفر .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الإضافة للتشريف ﴿على عبده﴾ ولم يذكره باسمه تشريفاً له وتكريماً .

٢ ـ الاكتفاء بأحد الوصفين ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ أي ليكون بشيراً ونذيراً واكتفى بالإنذار لمناسبته للكفار .

٣ ـ الجناس الناقص ﴿يَخْلُقون . . ويُخْلقون﴾ سمي ناقصاً لتغايره في الشكل .

٤ ـ الطباق بين ﴿ضراً . . ونفعاً﴾ وبين ﴿موتاً . . وحياة﴾ .

٥ ـ الاستفهام للتهكم والتحقير ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام﴾ ؟

٦ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ شبَّه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه وهو تمثيل وصف النار بالاهتياج والاضطرام على عادة المغيظ والغضبان .

---

(١) الطبري ١٨/ ١٤٤ .

٧ ـ جناس الاشتقاق ﴿أرسلنا . . المرسلين﴾ .

٨ ـ الجناس غير التام ﴿تصبرون . . بصيراً﴾ لتقديم بعض الحروف وتأخير البعض .

لطيفة : نبّه تعالى بقوله ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ على أنه تعالى يعطي العباد على حسب المصالح ، فيفتح على واحد أبواب المعارف والعلوم ويسد عليه أبواب الدنيا ، ويفتح على آخر أبواب الرزق ويحرمه لذة الفهم والعلم ، ولا اعتراض عليه لأنه فعال لما يريده .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا . . إلى . . بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾
من آية (٢١) إلى نهاية آية (٤٠) .

المناسبة : لما حكى تعالى إنكار المشركين لنبوة محمد عليه السلام وتكذيبهم للقرآن ، أعقبه بذكر بعض جرائمهم الأخرى ، ثم ذكر قصص بعض الأنبياء وما حلّ بأقوامهم المكذبين تسلية لرسول الله عليه الصلاة والسلام .

اللغة : ﴿حجراً﴾ بكسر الحاء حراماً من حَجَره إذا منعه قال الشاعر :

« ألا أصبحت أسماء حجراً محرَّماً »

أي حراماً محرماً ﴿هباء﴾ قال أبو عبيدة : الهباء مثل الغبار يدخل من الكوة مع ضوء الشمس ﴿منثوراً﴾ المنثور : المتفرق ﴿مقيلاً﴾ المقيل : زمان القيلولة وهي الاستراحة نصف النهار إذا اشتدَّ الحر ﴿تبرنا﴾ التتبير : التدمير والتكسير قال الزجاج : كلُّ شيء كسَّرته وفتَّته فقد تبرته .

سبب النزول : روي أن « عقبة بن أبي معيط » وكان صديقاً لأُبي بن خلف صنع وليمة فدعا إليها قريشاً ودعا رسول الله ﷺ فلما قُدم الطعام قال رسول الله ﷺ ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أني رسول الله ففعل فأكل رسول الله من طعامه فلما بلغ « أُبي بن خلف » ذلك قال لصديقه عقبة صبأت قال : لا ولكن دخل عليَّ رجل عظيم فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له بالرسالة فقال له أُبي : وجهي من وجهك حرام إن رأيت محمداً حتى تبزق في وجهه وتطأ على عنقه وتقول كيت وكيت ، ففعل عدوُّ الله ما أمره به خليله فأنزل الله ﴿ويوم يعض الظالم على يديه . .﴾ الآية[1] .

* ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا﴾

التفسير : ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي قال المشركون الذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يخشون عقابه لتكذيبهم بالبعث والنشور ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ أي هلاّ نزلت الملائكة علينا فأخبرونا بصدق محمد ﴿أو نرى ربنا﴾ أي أو نرى الله عياناً فيخبرنا أنك رسوله قال أبو حيان : وهذا

(١) التفسير الكبير ٢٤/٧٥ .

كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ

كله على سبيل التعنت وإلا فما جاءهم به من المعجزات كافٍ لو وُفّقوا[١] ﴿لقد استكبروا في أنفسهم﴾ أي تكبروا في شأن أنفسهم حين تفوهوا بمثل هذه العظيمة ، وطلبوا ما لا ينبغي ﴿وعتوا عُتواً كبيراً﴾ أي تجاوزوا الحدَّ في الظلم والطغيان ، حتى بلغوا أقصى العتو وغاية الاستكبار ﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذٍ للمجرمين﴾ أي يوم يرى المشركون الملائكة حين تنزل لقبض أرواحهم وقت الاحتضار لن يكون للمجرمين يومئذٍ بشارة تسرهم بل لهم الخيبة والخسران ﴿ويقولون حِجراً محجوراً﴾ أي تقول الملائكة لهم : حرام ومحرم عليكم الجنة والبُشرى والغفران قال ابن كثير : وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار ، فتقول للكافر عند خروج روحه : أُخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث ، أُخرجي إلى سمومٍ وحميم وظلٍ من يحموم فتأبى الخروج وتتفرق في البدن فيضربونه بمقامع الحديد ، بخلاف المؤمنين حال احتضارهم فإنهم يُبشرون بالخيرات وحصول المسرات ﴿تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾[٢] ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل﴾ أي عمدنا إلى أعمال الكفار التي يعتقدونها براً كإطعام المساكين وصلة الأرحام ويظنون أنها تقربهم إلى الله ﴿فجعلناه هباءً منثوراً﴾ أي جعلناه مثل الغبار المنثور في الجو ، لأنه لا يعتمد على أساس ولا يستند على إيمان قال الطبري : أي جعلناه باطلاً لأنهم لم يعملوه لله ، وإنما عملوه للشيطان ، والهباء هو الذي يُرى كهيئة الغبار إذا دخل ضوء الشمس من كوة ، والمنثور المتفرق[٣] وقال القرطبي : إن الله أحبط أعمالهم بسبب الكفر حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور[٤] ﴿أصحابُ الجنة يومئذٍ خير مستقراً﴾ لما بيَّن تعالى حال الكفار وأنهم في الخسران الكلي والخيبة التامة ، شرح وصف أهل الجنة وأنهم في غاية السرور والحبور ، تنبيهاً على أن السعادة كل السعادة في طاعة الله عز وجل ، ومعنى الآية : أصحابُ الجنة يوم القيامة خيرٌ من الكفار مستقراً ومنزلاً ومأوى[٥] ﴿وأحسن مقيلاً﴾ أي وأحسنُ منهم مكاناً للتمتع وقت القيلولة وهي الاستراحة نصف النهار ، فالمؤمنون في الآخرة في الفردوس والنعيم المقيم ، والكفار في دركات الجحيم قال ابن مسعود : «لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار» ﴿ويوم تشقق السَّماء بالغمام﴾ أي واذكر ذلك اليوم الرهيب يوم تتشقَّق السماء وتنفطر عن الغمام الذي يُسود الجو ويُظلمه ويغم القلوب مرآه لكثرته وشدة ظلمته ﴿ ونُزِّل الملائكة تنزيلاً﴾ أي ونزلت الملائكة فأحاطت بالخلائق في المحشر ﴿الملك يومئذٍ الحق للرحمن﴾ أي الملك في

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٤٩١ . (٢) ابن كثير ٢/ ٦٢٨ المختصر .

(٣) الطبري ١٩/ ٣ . (٤) القرطبي ١٣/ ٢٢ . (٥) كلمة «خير» ليست على بابها للمفاضلة وإنما هي لبيان حال أهل الجنة وأنهم في أحسن حال وخير مكان ، ولا ضرورة للتأويل بأنهم خير من الكافرين المترفين في الدنيا .

عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ

ذلك اليوم لله الواحد القهار ، الذي تخضع له الملوك ، وتعنوله الوجوه ، وتذل له الجبابرة ، لا مالك يومئذٍ سواه كقوله ﴿لمن الملك اليوم ؟ للهِ الواحد القهار﴾ ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ أي وكان ذلك اليوم صعباً شديداً على الكفار قال أبو حيان : ودل قوله ﴿على الكافرين﴾ على تيسيره على المؤمنين ففي الحديث (إنه يهون حتى يكون على المؤمن أخف عليه من صلاةٍ مكتوبة صلاها في الدنيا)[١] ﴿ويوم يعضُّ الظالم على يديه﴾ أي واذكر يوم يندم ويتحسر الظالم على نفسه لما فرَّط في جنب الله ، وعضُّ اليدين كنايةٌ عن الندم والحسرة ، والمراد بالظالم « عُقبة بن أبي معيط » كما في سبب النزول ، وهي تعمُّ كل ظالم قال ابن كثير : يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ وسلك سبيلاً غير سبيل الرسول ، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم ، وعضَّ على يديه حسرةً وأسفاً ، وسواءٌ كان نزولها في «عقبة بن معيط» أو غيره من الأشقياء فإنها عامةٌ في كل ظالم[٢] ﴿يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ أي يقول الظالم يا ليتني اتبعتُ الرسول فاتخذت معه طريقاً إلى الهدى ينجيني من العذاب ﴿يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾ أي يا هلاكي وحسرتي يا ليتني لم أصاحب فلاناً واجعله صديقاً لي ، ولفظ ﴿فلان﴾ كناية عن الشخص الذي أضلَّه وهو « أبي بن خلف » قال القرطبي : وكنى عنه ولم يصرِّح باسمه ليتناول جميع من فعل مثل فعله[٣] ﴿لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني﴾ أي لقد أضلني عن الهدى والإيمان بعد أن اهتديت وآمنت ثم قال تعالى ﴿وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ أي يُضله ويُغويه ثم يتبرأ منه وقت البلاء فلا ينقذه ولا ينصره ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ لما أكثر المشركون الطعن في القرآن ضاق صدر الرسول ﷺ وشكاهم إلى الله والمعنى : قال محمد يا رب إنَّ قريشاً كذبت بالقرآن ولم تؤمن به وجعلته وراء ظهورها متروكاً وأعرضوا عن استماعه قال المفسرون : وليس المقصود من حكاية هذا القول الإخبار بما قال المشركون بل المقصود منها تعظيم شكايته ، وتخويف قومه ، لأن الانبياء إذا التجأوا إلى الله وشكوا قومهم حل بهم العذاب ولم يمهلوا[٤] ﴿وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدواً من المجرمين﴾ أي كما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك جعلنا لكل نبي عدواً من كفار قومه ، والمراد تسلية النبي ﷺ بالتأسي بغيره من الأنبياء ﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ أي وكفى أن يكون ربك يا محمد هادياً لك وناصراً لك على أعدائك فلا تبال بمن عاداك ﴿وقال

(١) البحر ٦/ ٤٩٥ والحديث أخرجه أحمد بلفظ« والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن » الحديث . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٣٠ .
(٣) القرطبي ١٢/ ٢٦ . (٤) نقلاً عن حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٥١ .

﴿بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾

الذيـن كفـروا﴾ أي وقال كفار مكة ﴿لـولا أُنـزل عليـه القرآن جملـةً واحدة﴾ أي هلاَّ نزل هذا القرآن على محمد دفعة واحدة كما نزلت التوراة والإِنجيل ؟ قال تعالى رداً على شبهتهم التافهة ﴿كذلـك لنثبت بـه فؤادك﴾ أي كذلك أنزلناه مفرقاً لنقوي قلبك على تحمله فتحفظه وتعمل بمقتضى ما فيه ﴿ورتلنـاه ترتيـلاً﴾ أي فصَّلنا تفصيلاً بديعاً قال قتادة : أي بينّاه وقال الرازي : الترتيلُ في الكلام أن يأتي بعضه على إثر بعض على تُؤدة وتمهل ، وأصل الترتيل في الأسنان وهو تفلجها[١] وقال الطبري : الترتيلُ في القراءة الترسُّلُ والتثبتُ يقول : علمناكه شيئاً بعد شيء حتى تحفظه[٢] ﴿ولا يأتونك بمثلٍ إلا جئناك بالحق﴾ أي ولا يأتيك هؤلاء الكفار بحجةٍ أو شبهةٍ للقدح فيك أو في القرآن إلا أتيناك يا محمد بالحق الواضح ، والنور الساطع لندمغ به باطلهم ﴿وأحسـن تفسيـراً﴾ أي أحسن بيانـاً وتفصيلاً ، ثم ذكر تعـالى حال هؤلاء المشركين المكذبين للقرآن فقال ﴿الذيـن يُحشـرون على وجوههـم إلى جهنـم﴾ أي يُسْحبون ويجُرُّون إلى النار على وجوههم ﴿أولئـك شـر مكاناً وأضل سبيلاً﴾ أي هم شر منزلاً ومصيراً ، وأخطأ ديناً وطريقاً وفي الحديث « قيل يا رسول الله : كيف يُحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة[٣] »، ثم ذكر تعالى قصص الأنبياء تسلية لرسول الله ﷺ وإرهاباً للمكذبين فقال ﴿ولقـد آتينـا موسـى الكتـاب﴾ أي والله لقد أعطينا موسى التوراة ﴿وجعلنـا معـه أخاه هارون وزيـراً﴾ أي وأعنّاه بأخيه هارون فجعلناه وزيراً له يناصره ويُؤ ازره ﴿فقلنـا اذهبـا إلى القـوم الذيـن كذّبوا بآياتنـا﴾ أي اذهبا الى فرعون وقومه بالآيات الباهرات ، والمعجزات الساطعات ﴿فدمرناهـم تدميـراً﴾ أي فأهلكناهم إهلاكاً لما كذبوا رسلنا ﴿وقـومَ نـوحٍ لما كذَّبـوا الرسـل أغرقناهـم وجعلناهـم للنـاس آيـة﴾ أي وأغرقنا قوم نوح بالطوفان لمّا كذبوا رسولهم نوحاً وجعلناهم عبرةً لمن يعتبر قال أبو السعود : وإنما قال الرسل بالجمع مع أنهم كذَّبوا نوحاً وحده لأن تكذيبه تكذيبٌ للجميع لاتفاقهم على التوحيد والإِسلام[٤] ﴿وأعتـدنـا للظالميـن عذاباً أليمـاً﴾ أي وأعددنا لهم في الآخرة عذاباً شديداً مؤلماً سوى ما حلَّ بهم في الدنيا ﴿وعاداً وثمـود وأصحـاب الرَّس﴾ أي وأهلكنا عاداً وثمود وأصحاب البئر الذين انهارت بهم قال البيضاوي : وأصحابُ الرس قومٌ كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيباً فكذبوه فبينما هم حول الرس ـ وهي البئر غير المطوية ـ انهارت فخسفت بهم وبديارهم[٥] ﴿وقرونـاً بـين ذلـك كثيـراً﴾ أي وأمماً

(١) التفسير الكبير ٢٤/ ٧٩ . (٢) الطبري ١٩/ ٨ . (٣) أخرجه أصحاب السنن . (٤) أبو السعود ٤/ ٩ . (٥) البيضاوي ٢/ ٦٨ .

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾

وخلائق كثيرين لا يعلمهم إلا الله بين أولئك المكذبين أهلكناهم أيضاً ﴿وكلاًضربنا له الأمثال﴾ أي وكلاً من هؤلاء بيّنا لهم الحجج ، ووضحنا لهم الأدلة إعذاراً وإنذاراً ﴿وكلاً تبرنا تتبيراً﴾ أي أهلكناه إهلاكاً ، ودمرناه تدميراً ، لمّا لم تنجع فيهم المواعظ ﴿ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السَّوء﴾ أي ولقد مرَّت قريش مراراً في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أُهلكت بالحجارة من السماء وهي قرية « سدوم » عُظمى قرى قوم لوط ﴿أفلم يكونوا يرونها﴾ ؟ توبيخٌ لهم على تركهم الاتعاظ والاعتبار أي أفلم يكونوا في أسفارهم يرونها فيعتبروا بما حلَّ بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم لرسولهم ومخالفتهم لأوامر الله ؟ قال ابن عباس : كانت قريشٌ في تجارتها الى الشام تمر بمدائن قوم لوط كقوله تعالى ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين﴾ ﴿بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾ أي إنهم لا يعتبرون لأنهم لا يرجون معاداً يوم القيامة .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الترجي ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ لأن لولا بمعنى هلاّ للترجي .

٢ ـ جناس الاشتقاق ﴿عتوا عتواً﴾ و﴿حجراً محجوراً﴾ .

٣ ـ المبالغة بنفي الجنس ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ ومعناها لا يبشر يومئذٍ المجرمون وإنما عدل عنه للمبالغة .

٤ ـ التشبيه البليغ ﴿فجعلناه هباءً منثوراً﴾ أي كالغبار المنثور في الجو في حقارته وعدم نفعه ، حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

٥ ـ الكناية اللطيفة ﴿يعض الظالم على يديه﴾ كناية عن الندم والحسرة ، كما أن لفظة ﴿فلان﴾ كناية عن الصديق الذي أضله .

٦ ـ الإِسناد المجازي ﴿شر مكاناً﴾ لأن الضلال لا ينسب الى المكان ولكن الى أهله .

لَطِيفَة : قال ابن القيم رحمه الله : هجر القرآن أنواع :

أحدها : هجر سماعه والإِيمان به . والثاني : هجر العمل به وإن قرأه وآمن به . والثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه . والرابع : هجر تدبره وتفهم معانيه . والخامس : هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وكلٌ هذا داخل في قوله تعالى ﴿إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ وإن كان بعض الهجر أهونُ من بعض[1] .

* * *

قال الله تعالى: ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلاهزواً . . إلى . . أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً﴾ من آية (٤١) إلى نهاية آية (٦٠) .

(١) نقلاً عن تفسير محاسن التأويل ١٢/ ٥٧٥ .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى شبهات المشركين حول القرآن والرسول ، وردَّ عليهم بالحجج الدامغة ، والبراهين القاطعة ، ذكر هنا طرفاً من استهزائهم وسخريتهم بالرسول فلم يقتصروا على تكذيبه بل زادوا عليه بالاستهزاء والاحتقار ، ثم ذكر الأدلة على وحدانيته تعالى وقدرته .

اللغَة : ﴿سُباتاً﴾ السُّبات : الراحة جعل النوم سُباتاً لأنه راحة للأبدان وأصل السبت : القطع ومنه السبت لليهود لانقطاعهم فيه عن الأعمال ﴿نشوراً﴾ النشور : الانتشار والحركة ، والنهار سببٌ للانتشار من أجل طلب المعاش ﴿أناسي﴾ جمع إنسي مثل كراسي وكرسي قال الفراء : الإنسي والأناسي اسم للبشر وأصله انسان ثم أبدلت من النون ياء فصار إنسي ﴿مرج﴾ خلَّى وأرسل وخلط يقال مرجته إذا خلطته ﴿وأمرٌ مريج﴾ أي مضطرب مختلط ﴿فرات﴾ شديد العذوبة ﴿أجاج﴾ شديد الملوحة ﴿برزخاً﴾ حاجزاً .

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

التفسِير : ﴿وإذا رأوكَ إنْ يتخذونك إلاّ هُزُواً﴾ أي وإذا رآك المشركون يا محمد ما يتخذونك إلا موضع هزء وسخرية ﴿أهذا الذي بعث اللهُ رسولاً﴾ أي قائلين بطريق التهكم والاستهزاء : أهذا الذي بعثه الله إلينا رسولاً ؟ ﴿إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها﴾ أي إن كاد ليصرفنا عن عبادة آلهتنا لولا أن ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها قال تعالى رداً عليهم ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضلُّ سبيلاً﴾ وعيد وتهديد أي سوف يعلمون في الآخرة عند مشاهدة العذاب من أخطأ طريقاً وأضل ديناً أهم أم محمد؟ ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ تعجيبٌ من ضلال المشركين أي أرأيت من جعل هواه إلهاً كيف يكون حاله ؟ قال ابن عباس : كان الرجل من المشركين يعبد حجراً فإذا رأى حجراً أحسن منه رماه وأخذ الثاني فعبده ﴿أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ أي حافظاً تحفظه من اتباع هواه ؟ ليس الأمر لك قال أبو حيان : وهذا تيئيسٌ من إيمانهم ، وإشارةٌ للرسول عليه السلام ألا يتأسف عليهم ، وإعلامٌ أنهم في الجهل بالمنافع وقلة النظر في العواقب مثل البهائم[1] ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون﴾ ؟ أي أتظن أن هؤلاء المشركين يسمعون ما تقول لهم سماع قبول ؟ أو يعقلون ما تورده عليهم من الحجج والبراهين الدالة على الوحدانية فتهتم بشأنهم وتطمع في إيمانهم ؟ ﴿إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً﴾ أي ما هم إلا كالبهائم بل هم أبشع حالاً ، وأسوأ مآلاً من الأنعام السارحة ، لأن البهائم تهتدي لمراعيها ، وتنقاد لأربابها وتعرف من يحسن إليها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون

(١) البحر ٦/ ٥٠١ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا﴾

إحسانه إليهم ، ثم ذكر تعالى أنواعاً من الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال ﴿ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظل﴾ أي ألم تنظر إلى بديع صنع الله وقدرته كيف بسط تعالى الظلَّ ومدَّه وقت النهار حتى يستروح الإنسان بظل الأشياء من حرارة الشمس المتوهجة ؟ إذ لولا الظلُّ لأحرقت الشمس الإنسان وكدَّرت حياته ﴿ولو شاء لجعله ساكناً﴾ أي لو أراد سبحانه لجعله دائماً ثابتاً في مكانٍ لا يزول ولا يتحول عنه ، ولكنه بقدرته ينقله من مكان إلى مكان ، ومن جهةٍ الى جهة ، فتارة يكون جهة المشرق ، وتارة جهة المغرب ، وأخرى من أمام أو خلف ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾ أي جعلنا طلوع الشمس دليلاً على وجود الظل ، فلولا وقوع ضوئها على الأجرام لما عرف أن للظل وجوداً ، ولما ظهرت آثار هذه النعمة الجليلة للعباد ، والأشياء إنما تُعرف بأضدادها فلولا الظلمة ما عُرف النور ، ولولا الشمسُ ما عرف الظل «وبضدها تتميز الأشياء» ﴿ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾ أي أزلنا هذا الظلَّ شيئاً فشيئاً ، وقليلاً قليلاً لا دفعة واحدة لئلا تختل المصالح قال ابن عباس : الظلُّ من وقت طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس[1] قال المفسرون : الظلُّ هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة ، وهو يحدث على وجه الأرض منبسطاً فيما بين ظهور الفجر الى طلوع الشمس ، ثم إن الشمس تنسخه وتزيله شيئاً فشيئاً ، الى الزوال ، ثم هو ينسخ ضوء الشمس من وقت الزوال الى الغروب ويسمى فَيْئاً ، ووجه الاستدلال به على وجود الصانع الحكيم أن وجوده بعد العدم ، وعدمه بعد الوجود ، وتغير أحواله بالزيادة والنقصان ، والانبساط والتقلص ، على الوجه النافع للعباد لا بدَّ له من صانع قادر ، مدبر حكيم ، يقدر على تحريك الأجرام العلوية ، وتدبير الأجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الأحسن ، والترتيب الأكمل وما هو إلا الله رب العالمين[2] . ثم أشار تعالى إلى آثار قدرته ، وجليل نعمته الفائضة على الخلق فقال ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباساً﴾ أي هو سبحانه الذي جعل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس بزينته قال الطبري : وصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث يستر الأشياء فصار لهم ستراً يستترون به كما يستترون بالثياب التي يكسونها[3] ﴿والنوم سُباتاً﴾ أي وجعل النوم راحةً لأبدانكم بانقطاعكم عن أعمالكم ﴿وجعل النهار نُشوراً﴾ أي وقتاً لانتشار الناس فيه لمعايشهم ، ومكاسبهم ، وأسباب رزقهم ﴿وهو الذي أرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته﴾ أي أرسل الرياح مبشرة بنزول الغيث والمطر

---

(١) الطبري ١٩/١٢ هذا القول منقول عن مجاهد وإليه ذهب كثير من المفسرين وقالوا إنه أطيب الأحوال ولذلك وصف به الجنة ﴿وظل ممدود﴾ وما أثبتناه هو الراجح لأنه الظل المعروف ولفظ الشمس يرجحه وهو اختيار العلامة أبي السعود . (٢) انظر تفسير الرازي ٢٤/٨٨ ففيه كلام جيد نفيس . (٣) الطبري ١٩/١٤ .

وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ *وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ

﴿وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً﴾ أي أنزلنا من السحاب الذي ساقته الرياح ماءً طاهراً مطهّراً تشربون وتتطهرون به قال القرطبي : وصيغة ﴿طهور﴾ بناء مبالغة في «طاهر» فاقتضى أن يكون طاهراً مطهّراً[1] ﴿لنحيي به بلدةً ميتاً﴾ أي لنحيي بهذا المطر أرضاً ميتةً لا زرع فيها ولا نبات ﴿ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسيَّ كثيراً﴾ أي وليشرب منه الحيوان والإنسان لأن الماء حياة كل حيّ ، والناس محتاجون إليه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم وسقي مواشيهم قال الإمام الفخر : وتنكير الأنعام والأناسي لأن حياة البشر بحياة أرضهم وأنعامهم ، وأكثر الناس يجتمعون في البلاد القريبة من الأودية والأنهار ، فهم في غنية عن شرب مياه المطر ، وكثيرٌ منهم نازلون في البوادي فلا يجدون المياه للشرب إلا عند نزول المطر ولهذا قال ﴿أنعاماً وأناسي كثيراً﴾ أي بشراً كثيرين لأن «فعيل» يراد به الكثرة[2] ﴿ولقد صرفناه بينهم ليذكروا﴾ أي ضربنا الأمثال في هذا القرآن[3] للناس وبيَّنا فيه الحجج والبراهين ليتفكروا ويتدبروا ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ أي أبى الكثير من البشر إلا الجحود والتكذيب ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قريةٍ نذيراً﴾ أي لو أردنا لخففنا عنك أعباء النبوة فبعثنا في كل أهل قرية نبياً ينذرهم ، ولكننا خصصناك بالبعثة الى جميع أهل الأرض إجلالاً لك ، وتعظيماً لشأنك ، فقابل هذا الإجلال بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ أي فلا تطع الكفار فيما يدعونك إليه من الكفّ عن آلهتهم ، وجاهدهم بالقرآن جهاداً كبيراً بالغاً نهايته لا يصاحبه فتور ﴿وهو الذي مرج البحرين﴾ أي هو تعالى بقدرته خلى وأرسل البحرين متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان ﴿هذا عذبٌ فرات﴾ أي شديد العذوبة قاطع للعطش من فرط عذوبته ﴿وهذا ملحٌ أجاج﴾ أي بليغ الملوحة ، مرٌّ شديد المرارة ﴿وجعل بينهما برزخاً﴾ أي جعل بينهما حاجزاً من قدرته لا يغلب أحدهما على الآخر ﴿وحِجراً محجوراً﴾ أي ومنعاً من وصول أثر أحدهما إلى الآخر وامتزاجه به قال ابن كثير : معنى الآية انه تعالى خلق الماءين : الحلو والمالح ، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار ، والمالح كالبحار الكبار التي لا تجري ، وجعل بين العذب والمالح حاجزاً وهو اليابس من الأرض ، ومانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر ، وهذا اختيار ابن جرير[4] وقال الرازي : ووجه الاستدلال ههنا بيّن لأن الحلاوة والملوحة إن كانت بسبب طبيعة الارض أو الماء فلا بدَّ من الاستواء ، وإن لم يكن كذلك فلا بدَّ من قادر حكيم يخص كل واحد بصفة معينة[5] ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً﴾ أي خلق من النطفة إنساناً سميعاً بصيراً

---

(١) القرطبي ١٣/ ٣٩ . (٢) التفسير الكبير ٢٤/ ٩١ . (٣) الضمير في ﴿صرفناه﴾ عائد على القرآن وإن لم يتقدم له ذكر لوضوح الأمر ويؤ يده قوله ﴿وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ وقيل إنه عائد على المطر وهو كما قال في التسهيل بعيد . (٤) ابن كثير ٢/ ٦٣٥ المختصر . (٥) التفسير الكبير ٢٤/ ١٠١ .

﴿نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾

﴿فجعله نسباً وصهراً﴾ أي قسمهم من نطفةٍ واحدة قسمين : ذوي نسب أي ذكوراً ينسب اليهم لأن النسب إلى الآباء كما قال الشاعر :

فإنما أمهاتُ الناس أوعيةٌ ... مستودعات وللآباء أبناء

وإناثاً يُصاهر بهن، فبالنسب يتعارفون ويتواصلون ، وبالمصاهرة تكون المحبة والمودة واجتماع الغريب بالقريب ﴿وكان ربك قديراً﴾ أي مبالغاً في القدرة حيث خلق من النطفة الواحدة ذكراً وأنثى . . ولما شرح دلائل التوحيد عاد إلى تهجين سيرة المشركين في عبادة الأوثان فقال ﴿ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم﴾ أي يعبدون الأصنام التي لا تنفع ولا تضر لأنها جمادات لا تُحسُّ ولا تُبصر ولا تعقل ﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ أي معيناً للشيطان على معصية الرحمن ، لأنَّ عبادته للأصنام معاونة للشيطان قال مجاهد : يظاهر الشيطان على معصية الله ويُعينه[1] ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾ أي مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم ، ومنذراً للكافرين بعذاب الجحيم ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر﴾ أي قل لهم يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً ﴿إلاّ من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي لكن من شاء أن يتخذ طريقاً يقربه إلى الله بالإيمان والعمل الصالح فليفعل كأنه يقول : لا أسألكم مالاً ولا أجراً وإنما أسألكم الإيمان بالله وطاعته وأجري على الله ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ أي اعتمد في جميع أمورك على الواحد الأحد ، الدائم الباقي الذي لا يموت أبداً ، فإنه كافيك وناصرك ومظهر دينك على سائر الأديان ﴿وسبِّح بحمده﴾ أي نزِّه الله تعالى عمّا يصفه هؤلاء الكفار مما لا يليق به من الشركاء والأولاد ﴿وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾ أي حسبك أن الله مطَّلع على أعمال العباد لا يخفى عليه شيء منها قال الإمام الفخر : وهذه الكلمة يراد بها المبالغة كقولهم : كفى بالعلم جمالاً ، وكفى بالأدب مالاً ، وهي بمعنى حسبك أي لا تحتاج معه إلى غيره لأنه خبيرٌ بأحوالهم ، قادر على مجازاتهم ، وذلك وعيدٌ شديد[2] ﴿الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ أي هذا الإِله العظيم الذي ينبغي أن تتوكل عليه هو القادر على كل شيء ، الذي خلق السموات السبع في ارتفاعها واتساعها ، والأرضين في كثافتها وامتدادها في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا قال ابن جبير : الله قادر على أن يخلقها في لحظة ولكن علَّم خلقه الرفق والتثبت[3] ﴿ثم استوى على العرش﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تعطيل ﴿الرحمن﴾ أي هو

(١) الطبري ١٩/١٧ . (٢) التفسير الكبير ٢٤/١٠٣ . (٣) التفسير الكبير ٢٤/١٠٤

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾

الرحمن ذو الجود والإحسان ﴿فاسأل به خبيراً﴾ أي فسلْ عنه من هو خبيرٌ عارف بجلاله ورحمته ، وقيل : الضمير يعود إلى الله أي فاسأل اللهَ الخبيرَ بالأشياء ، العالم بحقائقها يطلعك على جليَّة الأمر[1] ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن﴾ أي وإذا قيل للمشركين اسجدوا لربكم الرحمن الذي وسعت رحمته الأكوان ﴿قالوا وما الرحمن﴾ ؟ أي من هو الرحمن ؟ استفهموا عنه استفهام من يجهله وهم عالمون به ﴿أنسجد لما تأمرنا﴾ أي أنسجد لما تأمرنا بالسجود له من غير أن نعرفه ؟ ﴿وزادهم نفوراً﴾ أي وزادهم هذا القول بعداً عن الدين ونفوراً منه .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستفهام للتهكم والاستهزاء ﴿أهذا الذي بعث الله رسولاً﴾ ؟

٢ ـ التعجيب ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ وفيه تقديم المفعول الثاني على الأول اعتناءً بالأمر المتعجب منه والأصل « اتخذ هواه إلهاً له » .

٣ ـ التشبيه البليغ ﴿جعل الليل لباساً﴾ أي كاللباس الذي يغطي البدن ويستره حذف منه الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

٤ ـ المقابلة اللطيفة بين الليل والنهار والنوم والانتشار ﴿جعل الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً﴾ .

٥ ـ الاستعارة البديعة ﴿بين يدي رحمته﴾ استعار اليدين لما يكون أمام الشيء وقدَّامه كما تقول : بين يدي الموضوع او السورة .

٦ ـ الالتفات من الغيبة الى التكلم للتعظيم ﴿وأنزلنا من السماء﴾ بعد قوله ﴿أرسل الرياح﴾ .

٧ ـ المقابلة اللطيفة ﴿هذا عذبٌ فرات ، وهذا ملح أجاج﴾ أي نهاية في الحلاوة ونهاية في الملوحة .

تـنـبيـه : الفرق بين ﴿ميت﴾ بالتخفيف و﴿ميت﴾ بالتشديد أن الأول لمن مات حقيقة والثاني لمن سيموت قال الشاعر :

أيا سائلي تفسير مَيْتٍ وميِّتٍ ... فدونَك قد فسرتُ ما عنه تسأل
فما كان ذا روحٍ فذلك ميِّتٌ ... وما المَيْتُ إلا من إلى القبر يحُمل[2]

* * *

قال الله تعالى : ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً . . إلى . . فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً﴾ من آية (٦١) إلى آية (٧٧) نهاية السورة الكريمة .

---

(١) القول الأول أظهر ، والثاني روي عن مجاهد . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ١٦١ .

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ

المناسبة : لما ذكر إعراض المشركين عن عبادة الرحمن أعقبها بذكر آياته الكونية الدالة على الوحدانية ، ثم ختم السورة الكريمة بذكر صفات عباد الرحمن التي استحقوا بها دخول الجنان .

اللغة : ﴿بروجاً﴾ البروج : منازل الكواكب السيارة سميت بالبروج لأنها تشبه القصور العالية وهي للكواكب كالمنازل للسكان وقيل : هي الكواكب العظيمة ﴿غراماً﴾ لازماً دائماً غير مفارق ومنه الغريم لملازمته ﴿الغُرفة﴾ الدرجة الرفيعة في الجنة وهي في اللغة العلية ، وكل بناءٍ عالٍ فهو غرفة ﴿يعبأ﴾ يبالي ويهتمُّ قال أبو عبيدة : ما أعبأ به أي وجودُه وعدمه عندي سواء ، والعبء في اللغة الثقل ﴿لزاماً﴾ ملازماً لكم .

التفسير : ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾ أي تمجَّد وتعظَّم الله الذي جعل في السماء تلك الكواكب العِظام المنيرة[1] ﴿وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾ أي وجعل فيها الشمس المتوهجة في النهار ، والقمر المضيء بالليل ﴿وهو الذي جعل الليلَ والنهار خِلْفةً﴾ أي يخلف كلٌّ منهما الآخر ويتعاقبان ، فيأتي النهار بضيائه ثم يعقبه الليل بظلامه ﴿لمن أراد أن يذكّر﴾ أي لمن أراد أن يتذكَّر آلاء الله ، ويتفكر في بدائع صنعه ﴿أو أراد شكوراً﴾ أي أراد شكر الله على إفضاله ونعمائه قال الطبري : جعل الله الليل والنهار يخلف كل واحدٍ منهما الآخر ، فمن فاته شيء من الليل أدركه بالنهار ، ومن فاته شيء من النهار أدركه بالليل[2] ﴿وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هوْناً﴾ الإضافة للتشريف أي العباد الذين يحبهم الله وهم جديرون بالانتساب إليه هم الذين يمشون على الأرض في لين وسكينة ووقار ، لا يضربون بأقدامهم أشراً ولا بطراً ، ولا يتبخترون في مشيتهم ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ أي وإذا خاطبهم السفهاء بغلظةٍ وجفاءٍ قالوا قولاً يسْلمون فيه الإثم قال الحسن : لا يجهلون على أحد ، وإن جُهل عليهم حَلُموا ﴿والذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً﴾ أي يُحْيون الليل بالصلاة ساجدين لله على جباههم، أو قائمين على أقدامهم كقوله ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ قال الرازي : لما ذكر سيرتهم في النهار من وجهين : ترك الإيذاء ، وتحمل الأذى بيَّن هنا سيرتهم في الليالي وهو اشتغالهم بخدمة الخالق[3] ﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم﴾ أي يدعون ربهم أن ينجيهم من عذاب النار ، ويبتهلون إليه أن يدفع عنهم عذابها ﴿إن عذابها كان غراماً﴾ أي لازماً دائماً

(١) قال مجاهد والحسن : البروج هي الكواكب العظام وقال ابن عباس وعلي : هي منازل الكواكب ، قال ابن كثير : والقول الأول أظهر .
(٢) الطبري ١٩/ ٢٠ . (٣) التفسير الكبير ٢٤/ ١٠٨ .

عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ

غير مفارق ﴿إنها ساءتْ مستقراً ومُقاماً﴾ أي بئست جهنم منزلاً ومكان إقامة قال القرطبي : المعنى بئس المستقر وبئس المقام ، فهم مع طاعتهم مشفقون خائفون من عذاب الله[1] ، وقال الحسن : خشعوا بالنهار وتعبوا بالليل فرَقاً من عذاب جهنم ﴿والذين إذا أنْفقوا لم يُسْرِفوا ولم يقْتروا﴾ هذا هو الوصف الخامس من أوصاف عباد الرحمن والمعنى : ليسوا مبذرين في إنفاقهم في المطاعم والمشارب والملابس ، ولا مقصِّرين ومضيّقين بحيث يصبحون بخلاء ﴿وكان بين ذلك قَواماً﴾ أي وكان إنفاقُهم وسطاً معتدلاً بين الإسراف والتقتير كقوله تعالى ﴿ولا تجعلْ يدكَ مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كلَّ البسط﴾ الآية وقال مجاهد : « لو أنفقت مثل جبل أبي قُبيس ذهباً في طاعة الله ما كان سرَفاً ، ولو أنفقت صاعاً في معصية الله كان سرَفاً »[2] ﴿والذين لا يدعون مع اللهِ إلهاً آخر﴾ أي لا يعبدون معه تعالى إلهاً آخر ، بل يوحّدونه مخلصين له الدين ﴿ولا يقتلون النفس التي حرَّم اللهُ إلا بالحقّ﴾ أي لا يقتلون النفس التي حرَّم الله قتلها إلا بما يحقُّ أن تُقتل به النفوس من كفرٍ بعد إيمان ، أو زنىً بعد إحصان ، أو القتل قِصاصاً ﴿ولا يزنون﴾ أي لا يرتكبون جريمة الزنى التي هي من أفحش الجرائم ﴿ومن يفعلْ ذلك يلقَ أثاماً﴾ أي ومن يقترف تلك الموبقات العظيمة من الشرك والقتل والزنى يجد في الآخرة النكال والعقوبة ثم فسَّرها بقوله ﴿يُضاعفْ له العذاب يوم القيامة﴾ أي يُضاعف عقابُه ويُغلَّظ بسبب الشرك وبسبب المعاصي ﴿ويَخلُد فيه مُهاناً﴾ أي يُخلد في ذلك العذاب حقيراً ذليلاً أبد الآبدين ﴿إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً﴾ أي إلاّ من تاب في الدنيا التوبة النصوح وأحسن عمله ﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ أي يكرمهم الله في الآخرة فيجعل مكان السيئات حسنات وفي الحديث (إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها ، رجلٌ يُؤتى به يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها ، فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال : عملتَ يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفقٌ من كبار ذنوبه فيقال له : فإنَّ لك مكانَ كل سيئةٍ حسنة فيقول يا رب : قد عملتُ أشياء لا أراها ههنا ، قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدتْ نواجذه)[3] ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي واسع المغفرة كثير الرحمة ﴿ومن تابَ وعملَ صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ أي ومن تاب عن المعاصي وأصلح سيرته فإن الله يتقبل توبته ويكون مرضياً عند الله تعالى ﴿والذين لا يشهدون

(١) القرطبي ١٣/ ٧٢ . (٢) الطبري ١٩/ ٢٣ وهذا على قول من فسرَّ الإسراف بأنه الإنفاق في معصية الله ، وإليه ذهب بعض المفسرين وهو منقول عن ابن عباس أيضاً والقول الأول أظهر . (٣) أخرجه مسلم .

وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

الـزور﴾ هذا هو الوصف السابع من أوصاف عباد الرحمن أي لا يشهدون الشهادة الباطلة ـ شهادة الزور ـ التي فيها تضييعٌ لحقوق الناس ﴿وإذا مـرّوا باللغـو مـرّوا كراماً﴾ أي وإذا مـرّوا بمجالس اللغو ـ وهـي الأماكن التي يكون فيها العمل القبيح كمجـالس اللهـو ، والسينما ، والقمار ، والغنـاء المحـرّم ـ مـرّوا معرضين مكرمين أنفسهم عن أمثال تلك المجالس قال الطبري : واللغوُ كـلُّ كلامٍ أو فعلٍ باطل وكلُّ ما يُستقبح كسبّ الإنسان ، وذكر النكاح باسمه في بعض الأماكن ، وسماعِ الغناءِ مما هو قبيح ، كلُّ ذلك يدخل في معنى اللغو الذي يجب أن يجتنبه المؤمن[1] ﴿والذيـن إذا ذُكّـروا بآياتِ ربهـم﴾ أي إذا وُعظوا بآيات القرآن وخُـوّفوا بها ﴿لـم يخـروا عليهـا صُمّـاً وعُمْيانـاً﴾ أي لم يُعرضوا عنها بل سمعوا بآذانٍ واعية وقلوبٍ وجلة ﴿والذيـن يقولـون ربَّنـا هـبْ لنـا مـن أزواجنـا وذرياتنـا قرة أعيـن﴾ أي اجعـل لنا في الأزواج والبنين مسرةً وفرحاً بالتمسك بطاعتك ، والعمـل بمرضاتـك ﴿واجعلنـا للمتقيـن إمـامـاً﴾ أي اجعلنا قُدوة يقتدي بنا المتقون ، دعاةً إلى الخير هُداة مهتدين قال ابن عباس : أي أئمة يقتدى بنا في الخير[2] ﴿أولـئك يُجْز ون الغُرفـة بما صبـروا﴾ أي أولـئـك المتصفون بالأوصاف الجليلة السامية ينالون الدرجات العالية ، بصبرهم على أمر الله وطاعتهم له سبحانه ﴿ويُلـقّـون فيهـا تحيـةً وسلامـاً﴾ أي ويُتلقّون بالتحية والسلام من الملائكة الكرام كقوله تعالى ﴿والملائكةُ يدخلـون عليهـم من كل باب سلام عليكم﴾ الآية ﴿خالديـن فيهـا﴾ أي مقيمين في ذلك النعيم لا يموتون ولا يُخرجون من الجنّة لأنها دار الخلود ﴿حسُنتْ مستقراً ومُقامـاً﴾ أي ما أحسنها مقـراً وأطيبها منزلاً لمن اتقى الله ﴿قـل ما يعبأ بكـم ربـي لولا دعاؤكـم﴾ أي قل لهم يا محمد : لا يكتـرثُ ولا يحفـلُ بكم ربي لولا تضرعكم إليه واستغاثتكم إيّاه في الشدائد ﴿فقـد كذبتـم فـسوف يكو ن لِزامـاً﴾ أي فقد كذبتم أيها الكافرو ن بالرسول والقرآن فسوف يكون العذاب ملازماً لكم في الآخرة .

البـلاغـة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الإضافة للتشريف والتكريم ﴿وعباد الرحمن﴾ .

(١) الطبري ١٩/ ٣٢ . (٢) ابن كثير ٢/ ٦٤٢ المختصر .

٢ ـ الطباق بين السجود والقيام ﴿سُجَّداً وقياماً﴾ وكذلك بين الإسراف والتقتير ﴿لم يُسرفوا ولم يقتروا﴾ .

٣ ـ المقابلة اللطيفة بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ﴿حَسُنَت مستقراً ومُقاماً﴾ مقابل قوله عن أهل النار ﴿ساءت مستقراً ومقاماً﴾ .

٤ ـ الاستعارة البديعة ﴿لم يخروا عليها صُمّاً وعمياناً﴾ أي لم يتغافلوا عن قوارع النذر حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر وهذا من أحسن الاستعارات .

٥ ـ الكناية ﴿قرة أعين﴾ كناية عن الفرحة والمسرَّة كما أن ﴿الغُرفة﴾ كناية عن الدرجات العالية في الجنة .

تـنـبيـه : قال القرطبي : وصف تعالى « عباد الرحمن » بإحدى عشرة خصلة هي أوصافهم الحميدة من التحلِّي ، والتخلِّي وهي « التواضع ، والحلم ، والتهجد ، والخوف ، وترك الإسراف والإقتار ، والبعد عن الشرك ، والنزاهة عن الزنى والقتل ، والتوبة ، وتجنب الكذب ، وقبول المواعظ ، والابتهال إلى الله » ثم بين جزاءهم الكريم وهو نيل الغرفة أي الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الفرقان »

* * *



بين يدي السورة

* سورة الشعراء مكية وقد عالجت أصول الدين من « التوحيد ، والرسالة ، والبعث » شأنها شأن سائر السور المكية ، التي تهتم بجانب العقيدة وأصول الإيمان .

* ابتدأت السورة الكريمة بموضوع القرآن العظيم الذي أنزله الله هدايةً للخلق ، وبلسماً شافياً لأمراض الإنسانية ، وذكرت موقف المشركين منه ، فقد كذبوا به مع وضوح آياته ، وسطوع براهينه ، وطلبوا معجزة أخرى غير القرآن الكريم عناداً واستكباراً .

* ثم تحدثت السورة عن طائفةٍ من الرسل الكرام ، الذين بعثهم الله لهداية البشرية ، فبدأت بقصة الكليم « موسى » مع فرعون الطاغية الجبار ، وما جرى من المحاورة والمداورة بينهما في شأن الإله جلَّ وعلا ، وما أيَّد الله به موسى من الحجة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل ، وقد ذكرت في القصة حلقات جديدة ، انتهت ببيان العظة والعبرة من الفارق الهائل ، بين الإيمان والطغيان .

* ثم تناولت قصة الخليل إبراهيم عليه السلام ، وموقفه من قومه وأبيه في عبادتهم للأوثان والأصنام ، وقد أظهر لهم بقوة حجته ، ونصاعة بيانه ، بطلان ما هم عليه من عبادة ما لا يسمع ولا ينفع ، وأقام لهم الأدلة القاطعة على وحدانية رب العالمين ، الذي بيده النفع والضر ، والإحياء والإماتة .

* ثم تحدثت السورة عن المتقين والغاوين ، والسعداء والأشقياء ، ومصير كلٍ من الفريقين يوم الدين . . .

* وبعد أن تابعت السورة في ذكر قصص الأنبياء « نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب » عليهم الصلاة والسلام ، وبيَّنت سنة الله في معاملة المكذبين لرسله ، عادت للتنوية بشأن الكتاب العزيز ، تفخيماً لشأنه ، وبياناً لمصدره ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسانٍ عربي مبين﴾ .

* ثم ختمت السورة بالرد على افتراء المشركين ، في زعمهم أن القرآن من تنزل الشياطين ، ليتناسق البدء مع الختام في أروع تناسق والتئام ! .

التسميـة : سميت « سورة الشعراء » لأن الله تعالى ذكر فيها أخبار الشعراء ، وذلك للرد على المشركين في زعمهم أن محمداً كان شاعراً ، وأن ما جاء به من قبيل الشعر ، فردَّ الله عليهم ذلك الكذب والبهتان بقوله ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون* ألـم تر أنهـم في كل وادٍ يهيمـون* وأنهـم يقولـون ما لا يفعلون﴾ ؟ وبذلك ظهر الحق وبان .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ

اللغـة : ﴿باخعٌ﴾ مهلك وقاتل وأصل البخع : أن يبلغ بالمذبوح البخاع وهو الخرم النافذ في ثقب الفقرات وهو أقصى حدِّ الذبح ﴿فعْلتـك﴾ الفَعْلـة بفتح الفـاء المرة من الفعـل ﴿تلقف﴾ تبتلـع ﴿يأفكـون﴾ من الإفـك وهو الكذب ﴿لا ضير﴾ لا ضرر ، والضرُّ والضير بمعنى واحد قال الجوهري : ضاره يضوره ضيْراً أي ضـرَّه قال الشاعر :

فـإنـك لا يضـورك بعـد حولٍ ... أظبيٌ كـان أمـك أم حمار[1]

﴿منقلبون﴾ راجعون ﴿من خلاف﴾ أي يخالف بين الأعضاء فيقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى .

التفسيـر : ﴿طسم﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم وأنه مركب من أمثـال هذه الحـروف الهجائية[2] ﴿تلـك آيـاتُ الكـتاب المبيـن﴾ أي هذه آيات القرآن الواضح الجلي ، الظاهر إعجازه لمن تأمله ﴿لعلـك باخـعٌ نفسَـك ألاّ يكونـوا مؤمنيـن﴾ أي لعلك يا محمد مهلكٌ نفسك لعدم إيمان هؤلاء الكفار ، فيه تسلية للرسول عليه السلام حتى لا يحزن ولا يتأثر على عدم إيمانهم ﴿إنْ نـشأْ نـنـزِّل عليهـم مـن السمـاء آيـة﴾ أي لو شئنا لأنزلنا آية من السماء تضطرهم إلى الإيمان قهراً ﴿فظلَّـتْ أعناقهـم لهـا خاضعيـن﴾ أي فتظل أعناقهم منقادةً خاضعة للإيمان قسراً وقهراً ، ولكنْ لا نفعل لأنا نريد أن يكون الإيمان اختياراً لا اضطراراً قال الصاوي : المعنى لا تحزن على عدم إيمانهم فلو شئنا إيمانهم لأنزلنا معجزة تأخذ بقلوبهم فيؤمنون قهراً عليهم ، ولكنْ سبق في علمنا شقاؤهم فأرحْ نفسك من التعب[3] ﴿ومـا يأتيهـم مـن ذكـرٍ مـن الرحـن﴾ أي ما يأتي هؤلاء الكفار شيء من القرآن أو الوحي منزلٍ من عند الرحمن ﴿مُـحْدَث﴾ أي جديد في النزول[4] ، ينزل وقتاً بعد وقت ﴿إلاّ كانـوا عنـه معرضيـن﴾ أي إلاّ كذبـوا بـه

---

(١) البيت لخداش بن زهير ضرب مثلاً لمن ينتسب إليه الإنسان من شريف أو وضيع . (٢) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة ففيه الغنية والكفاية .

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/١٦٧ . (٤) معنى « مُحْدث » أي محُدث في نزوله وإلا فكلام الله قديم لا يوصف بالحدوث كما لا يوصف بأنه مخلوق .

﴿مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣)﴾

واستهزءوا ولم يتأملوا بما فيه من المواعظ والعِبَر ﴿فقد كذبوا فسيأتيهم أنباءُ ما كانوا به يستهزئون﴾ أي فقد بلغوا النهاية في الإعراض والتكذيب فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا واستهزءوا به ، ثم نبّه تعالى على عظمة سلطانه ، وجلالة قدره في مخلوقاته ومصنوعاته ، الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال ﴿أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوجٍ كريم﴾ أي أولم ينظروا إلى عجائب الأرض كم أخرجنا فيها من كل صنفٍ حسنٍ محمود ، كثير الخير والمنفعة ؟ والاستفهام للتوبيخ على تركهم الاعتبار ﴿إنَّ في ذلك لآية﴾ أي إنَّ في ذلك الإنبات لآيةً باهرة تدل على وحدانية الله وقدرته ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي وما كان أكثرهم يؤمن في علم الله تعالى ، فمع ظهور الدلائل الساطعة يستمر أكثرهم على كفرهم ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي هو سبحانه الغالب القاهر ، القادر على الانتقام ممن عصاه ، الرحيم بخلقه حيث أمهلهم ولم يعجّل لهم العقوبة مع قدرته عليهم قال أبو العالية : العزيز في نقمته ممن خالف أمره وعبَد غيره ، الرحيم بمن تاب إليه وأناب وقال الفخر الرازي : إنما قدم ذكر ﴿العزيز﴾ على ﴿الرحيم﴾ لأنه ربما قيل : إنه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم ، فأزال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر ، ومع ذلك فإنه رحيم بعباده ، فإن الرحمة إذا كانت مع القدرة الكاملة كانت أعظم وقعاً[1] ﴿وإذْ نادى ربك موسى﴾ أي واذكر يا محمد لأولئك المعرضين المكذبين من قومك حين نادى ربك نبيَّه موسى من جانب الطور الأيمن آمراً له أن يذهب إلى فرعون وملئه ﴿أنْ ائتِ القوم الظالمين﴾ أي بأن ائت هؤلاء الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي ، واستعباد الضعفاء من بني إسرائيل ﴿قوم فرعون﴾ أي هم قوم فرعون ، وهو عطف بيان كأن القوم الظالمين وقوم فرعون شيء واحد ﴿ألاَ يتقون﴾ ؟ أي ألا يخافون عقاب الله ؟ وفيه تعجيب من غلوهم في الظلم وإفراطهم في العدوان ﴿قال ربِّ إني أخاف أن يكذبون﴾ أي قال موسى يا ربِّ إني أخاف أن يكذبوني في أمر الرسالة ﴿ويضيقُ صدري﴾ أي ويضيق صدري من تكذيبهم أياي ﴿ولا ينطلق لساني﴾ أي ولا ينطلق لساني بأداء الرسالة على الوجه الكامل ﴿فأرسل إلى هارون﴾ أي فأرسلْ إلى هارون ليعينني على تبليغ رسالتك قال المفسرون : التمس موسى العذر بطلب المعين بثلاثة أعذار كلٌّ واحدٍ منها مرتّب على ما قبله وهي : خوف التكذيب ، وضيق الصدر ، وعدم انطلاق اللسان ، فالتكذيبُ سببٌ لضيق القلب ، وضيقُ القلب سببٌ لتعسر الكلام ، وبالأخص على من كان في لسانه حُبْسة كما في قوله

(١) التفسير الكبير ٢٤/ ١٢٠ .

وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ

﴿واحلُلْ عُقدةً من لساني يفقهوا قولي﴾ ثم زاد اعتذاراً آخر بقوله ﴿ولهم عليَّ ذنبٌ فأخاف أنْ يقتلون﴾ أي ولفرعون وقومه عليَّ دعوى ذنب وهو أني قتلت منهم قبطياً فأخاف أن يقتلوني به ﴿قال كلاَّ﴾ أي قال الله تعالى له : كلاَّ لن يقتلوك قال القرطبي : وهو ردعٌ وزجر عن هذا الظن ، وأمرٌ بالثقة بالله تعالى أي ثِقْ بالله وانزجر عن خوفك منهم فإنهم لا يقدرون على قتلك[١] ﴿فاذهبا بآياتنا﴾ أي اذهب أنت وهارون بالبراهين والمعجزات الباهرة ﴿إنَّا معكم مستمعون﴾ أي فأنا معكما بالعون والنصرة أسمع ما تقولان وما يجيبكما به ، وصيغةُ الجمع « معكم » أريد به التثنية فكأنهما لشرفهما عند الله عاملهما في الخطاب معاملة الجمع تشريفاً لهما وتعظيماً[٢] ﴿فأْتيا فرعونَ فقولا إنَّا رسولُ رب العالمين﴾ أي فائتيا فرعون الطاغية وقولا له : إنا مرسلان من عند رب العالمين إليك لندعوك إلى الهدى ﴿أنْ أرسلْ معنا بني إسرائيل﴾ أي أطلقْ بني إسرائيل من إسارك واستعبادك وخلِّ سبيلهم حتى يذهبوا معنا إلى الشام ﴿قال ألم نربك فينا وليداً﴾ في الكلام حذف يدل عليه المعنى تقديره : فأتياه فبلغاه الرسالة فقال فرعون لموسى عندئذٍ : ألم نربك في منازلنا صبياً صغيراً ؟ قصد فرعون بهذا الكلام المنَّ على موسى والاحتقار له كأنه يقول : ألست أنت الذي ربيناك صغيراً وأحسنَّا إليك فمتى كان هذا الأمر الذي تدّعيه ؟ ﴿ولبثت فينا من عمرك سنين﴾ أي ومكثت بين ظهرانينا سنين عديدة نحسن إليك ونرعاك ؟ قال مقاتل : ثلاثين سنة ﴿وفعلتَ فعلتَكَ التي فعلتَ﴾ أي فجازيتنا على أن ربيناك أن كفرت نعمتنا وقتلتَ منا نفساً ؟ والتعبيرُ بالفعلة لتهويل الواقعة وتعظيم الأمر ، ومرادُه قتل القبطي ﴿وأنت من الكافرين﴾ أي وأنت من الجاحدين لإنعامنا الكافرين بإحساننا قال ابن عباس : من الكافرين لنعمتي إذ لم يكن فرعون يعلم ما الكفر[٣] ﴿قال فعلتُها إذاً وأنا من الضالين﴾ أي قال موسى : فعلتُ تلك الفعلة وأنا من المخطئين لأنني لم أتعمد قتله ولكنْ أردت تأديبه ، ولم يقصد عليه السلام الضلال عن الهدى لأنه معصوم منذ الصغر وقال ابن عباس : ﴿وأنا من الضالين﴾ أي الجاهلين ﴿ففررتُ منكم لمَّا خفتكم﴾ أي فهربتُ إلى أرض مدين حين خفت على نفسي أن تقتلوني وتؤاخذوني بما لا أستحقه ﴿فوهب لي ربي حُكماً﴾ أي فأعطاني الله النبوة والحكمة ﴿وجعلني من المرسلين﴾ أي واختارني رسولاً إليك ، فإن آمنتَ سلمتَ ، وإن جحدتَ هلكتَ ﴿وتلك نعمةٌ تمنُّها عليَّ أنْ عبَّدتَ بني

(١) القرطبي ١٣/٩٢ . (٢) هذا ما خرَّج به سيبويه رحمه الله الآية نقلاً عن البحر المحيط ٧/٨ .
(٣) وقال الحسن : يريد إنك من الكافرين بألوهيتي ورجح الطبري قول ابن عباس وهو الأظهر .

﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٢٢ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ۝٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢٨ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ۝٢٩﴾

إسرائيل﴾ أي كيف تمنُّ عليَّ بإحسانك إليَّ وقد استعبدتَ قومي[1] ؟ فما تعدُّه نعمة ما هو إلاّ نقمة قال ابن كثير : المعنى ما أحسنتَ إليَّ وربيتني مقابل ما أسأتَ إلى بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخدماً ، أفيفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم[2] ؟ وقال الطبري : أي أتمنُّ عليَّ أن اتخذت بني إسرائيل عبيداً[3] ؟ ﴿قال فرعونُ وما ربُّ العالمين﴾ أي قال فرعون متعالياً متكبراً : من هو هذا الذي تزعم أنه ربُّ العالمين ؟ هل هناك إلـهٌ غيري ؟ لأنه كان يجحد الصانع ويقول لقومه ﴿ما علمتُ لكم من إلـهٍ غيري﴾ ﴿قال ربُّ السمواتِ والأرض وما بينهما﴾ أي قال موسى : هو خالق السمواتِ والأرض ، والمتصرف فيهما بالإحياء والإعدام ، وهو الذي خلق الأشياء كلها من بحار وقفار ، وجبالٍ وأشجار ، ونباتٍ وثمار ، وغير ذلك من المخلوقات البديعة ﴿إن كنتم موقنين﴾ أي إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصارٌ نافذة ، فهذا أمر ظاهر جلي ﴿قال لمن حوله ألاَ تستمعون﴾ أي قال فرعون لمن حوله من أشراف قومه على سبيل التهكم والاستهزاء : ألا تسمعون جوابه وتعجبون من أمره ؟ أسأله عن حقيقة الله فيجيبني عن صفاته ، فأجاب موسى وزاد في البيان والحجة ﴿قال ربكم وربُّ آبائكم الأولين﴾ أي هو خالقكم وخالق آبائكم الذين كانوا قبلكم ، فوجودكم دليل على وجود القادر الحكيم ، عدلَ عن التعريف العام إلى التعريف الخاص لأنَّ دليل الأنفس أقرب من دليل الآفاق ، وأوضح عند التأمل ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ فعند ذلك غضب فرعون ونسب موسى إلى الجنون ﴿قال إن رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون﴾ سمَّاه رسولاً استهزاءً وأضافه إلى المخاطبين استنكافاً من نسبته له أي إن هذا الرسول لمجنون لا عقل له ، أسأله عن شيء فيجيبني عن شيء ، فلم يحفل موسى بسخرية فرعون وعاد إلى تأكيد الحجة بتعريفٍ ثالث أوضح من الثاني ﴿قال ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ أي هو تعالى الذي يطلع الشمس من المشرق ويجعلها تغرب من المغرب ، وهذا مشاهد كل يوم يبصره العاقل والجاهل ولهذا قال ﴿إن كنتم تعقلون﴾ أي إن كان لكم عقول أدركتم أن هذا لا يقدر عليه إلا ربُّ العالمين ، وهذا من أبلغ الحجج التي تقصم ظهر الباطل كقول إبراهيم في مناظرة النمروذ ﴿قال إبراهيم فإنَّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبهت الذي كفر﴾ ولما انقطع فرعون وأُبلس في الحجة رجع إلى الاستعلاء متوعداً بالبطش والعنف ﴿قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ أي لئن اتخذت رباً غيري لألقينك في غياهب السجن قال المفسرون : وكان

(١) هذا معنى ما قاله مقاتل . (٢) ابن كثير المختصر ٢/ ٦٤٥ . (٣) الطبري ١٩/ ٤٣ .

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

سجنه شديداً يحبس الشخص في مكان تحت الأرض وحده لا يبصر ولا يسمع فيه أحداً حتى يموت ولهذا لم يقل « لأسجننَّك» وإنما قال لأجعلنك من المسجونين لأن سجنه كان أشدَّ من القتل قال في التسهيل : لما أظهر فرعونُ الجهل بالله فقال ﴿وما ربُّ العالمين﴾ أجابه موسى بقوله ﴿ربُّ السموات والأرض﴾ فقال ﴿ألاَ تستمعون﴾ ؟ تعجباً من جوابه ، فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله ﴿ربكم وربُّ آبائكم الأولين﴾ لأن وجود الإنسان وآبائه أظهرُ الأدلة عند العقلاء ، وأعظم البراهين ، فإن أنفسهم أقرب الأشياء إليهم فيستدلون بها على وجود خالقهم ، فلما ظهرت هذه الحجة حاد فرعون عنها ونسب موسى إلى الجنون مغالطةً منه ، وأيّده بالازدراء والتهكم في قوله ﴿إن رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون﴾ فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله ﴿ربُّ المشرقِ والمغرب﴾ لأن طلوع الشمس وغروبها آية ظاهرة لا يمكن أحداً جحدها ولا أن يدعيها لغير الله ، فلما انقطع فرعون بالحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فهدَّده بالسجن ، فأقام موسى عليه الحجة بالمعجزة وذكرها له بتلطف طمعاً في إيمانه[١] ﴿قال أو لو جئتك بشيء مبين﴾ أي أتسجنني ولو جئتك بأمرٍ ظاهر ، وبرهان قاطع تعرف به صدقي ؟ ﴿قال فائْتِ به إن كنت من الصادقين﴾ أي فائْت بما تقول إن كنت صادقاً في دعواك ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ أي رمى موسى عصاه فإذا هي حية عظيمة في غاية الجلاء والوضوح ، ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مزعج ﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ أي وأخرج يده من جيبه فإذا هي تتلألأ كالشمس الساطعة ، لها شعاع يكادُ يعشي الأبصار ويسدُّ الأفق ﴿قال للملأ حوله إنَّ هذا لساحرٌ مبين﴾ أي قال فرعون لأشراف قومه الذين كانوا حوله : إن هذا لساحرٌ عظيم بارعٌ في فنِّ السحر . أراد أن يُعمِّي على قومه تلك المعجزة برميه بالسحر خشية أن يتأثروا بما رأوا ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾ أي يريد أن يستولي على بلادكم بسحره العظيم ﴿فماذا تأمرون﴾ أي فبأي شيء تأمروني وبما تشيرون عليَّ أن أصنع به ؟ لما رأى فرعون تلك الآيات الباهرة خاف على قومه أن يتبعوه ، فتنزَّل إلى مشاورتهم بعد أن كان مستبداً بالرأي والتدبير ﴿قالوا أرجهْ وأخاه﴾ أي أخِّرْ أمرهما ﴿وابعثْ في المدائن حاشرين﴾ أي وأرسل في أطراف مملكتك من يجمع لك السحرة من كل مكان ﴿يأتوك بكل سحّار عليم﴾ أي يجيئوك بكل ساحر ماهر ، عليم بضروب السحر قال ابن كثير : وكان هذا من تسخير الله تعالى ليجتمع الناس في صعيد واحد ، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة[٢]

(١) ابن كثير ٢/ ٦٤٦ المختصر . (١) الطبري ١٩/ ٤٦ . (٢) ابن كثير ٢/ ٦٤٧ المختصر .

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ۝٤٠ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٢ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٤٣ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ۝٤٤ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۝٤٨ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ﴾

﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴾ أي فاجتمع السحرة للموعد المحدَّد وهو وقت الضحى من يوم الزينة ، وهو الوقت الذي حدَّده موسى ، ليظهر الحق ويزهق الباطل على رءوس الأشهاد كما قال تعالى ﴿قال موعدكم يوم الزينة وأن يُحشر الناس ضحى﴾ ﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلّنا نتّبعُ السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾ أي قيل للناس : بادروا إلى الإجتماع لكي نتبع السحرة في دينهم إن غلبوا موسى ﴿فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئنَّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ أي إن غلبنا بسحرنا موسى فهل تكرمنا بالمال والأجر الجزيل ؟ ﴿قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين﴾ أي قال لهم فرعون : نعم أعطيكم ما تريدون وأجعلكم من المقربين عندي ومن خاصة جلسائي ﴿قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾ في الكلام إيجاز دلَّ عليه السياق تقديره : فقالوا لموسى عند ذلك إمَّا أن تُلقي وإما أن نكون نحن الملقين كما ذكر في الأعراف فأجابهم موسى بقوله ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾ أي ابدءوا بإلقاء ما تريدون فأنا لا أخشاكم ، قاله ثقةً بنصرة الله له وتوسلاً لإظهار الحقّ ﴿فألقوا حبالهم وعصيَّهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ أي فألقوا ما بأيديهم من الحبال والعصي وقالوا عند الإلقاء نقسم بعظمة فرعون وسلطانه إنّا نحن الغالبون لموسى ﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ أي فألقى موسى العصى فانقلبت حية عظيمة فإذا هي تبتلع وتزدرد الحبال والعصيّ التي اختلقوها باسم السحر حيث خيلوها للناس حياتٍ تسعى ، وسمّى تلك الأشياء إفكاً مبالغةً ﴿فأُلقي السحرةُ ساجدين﴾ أي سجدوا للهِ رب العالمين ، بعدما شاهدوا البرهان الساطع ، والمعجزة الباهرة ﴿قالوا آمنا بربّ العالمين * ربِّ موسى وهارون﴾ أي وقالوا عند سجودهم آمنا بالله العزيز الكبير الذي يدعونا إليه موسى وهارون قال الطبري : لما تبيّن للسحرة أن الذي جاءهم به موسى حقٌّ لا سحر ، وأنه مما لا يقدر عليه غيرُ الله الذي فطر السموات والأرض ، خرّوا لوجوههم سجداً لله مذعنين له بالطاعة قائلين : آمنا برب العالمين الذي دعانا موسى لعبادته ، دون فرعون وملئه[1] ﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾ أي قال فرعون للسحرة : آمنتم لموسى قبل أن تستأذنوني ؟ ﴿إنه لكبيركم الذي علّمكم السحر﴾ أي إنه

(١) الطبري ١٩/ ٤٦ .

﴿ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

رئيسكم الذي تعلمتم منه السحر وتواطأتم معه ليظهر أمره ، أراد فرعون بهذا الكلام التلبيس على قومه لئلا يعتقدوا أن السحرة آمنوا عن بصيرة وظهور حق قال ابن كثير : وهذه مكابرة يعلم كل أحدٍ بطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لا يقوله عاقل[1] ، ثم توعَّدهم بقوله ﴿فلسوف تعلمون﴾ أي سوف تعلمون عند عقابي وبال ما صنعتم من الايمان به ﴿لأُقطِّعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أي لأقطعنَّ يد كل واحد منكم اليمنى ورجله اليسرى ﴿ولأُصلِّبنَّكم أجمعين﴾ أي ولأصلبنَّ كل واحد منكم على جذع شجرة وأتركه حتى الموت ﴿قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون﴾ أي لا ضرر علينا في وقوع ما أوعدتنا به ، ولا نبالي به لأننا نرجع إلى ربنا مؤملين غفرانه ﴿إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا﴾ أي إنا نرجو أن يغفر لنا الله ذنوبنا التي سلفت منا قبل إيماننا به فلا يعاقبنا بها ﴿أنْ كنا أول المؤمنين﴾ أي بسبب أن بادرنا قومنا إلى الايمان وكنا أول من آمن بموسى .

البَلَاغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الكناية اللطيفة ﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ كنّى به عن الذل والهوان الذي يلحقهم بعد العز والكبرياء .

٢ ـ الوعيد والتهديد ﴿فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ .

٣ ـ التوبيخ ﴿أولم يروا إلى الأرض﴾ الاستفهام للتوبيخ على تركهم النظر بعين الاعتبار .

٤ ـ المقابلة اللطيفة بين ﴿ويضيق صدري﴾ ﴿ولا ينطلق لساني﴾ .

٥ ـ جناس الاشتقاق ﴿رسول .. وأرسل﴾ .

٦ ـ الجناس الناقص ﴿وفعلتَ فعْلتك﴾ فقد اتفقت الحروف بين ﴿فعلتَ وبين فعْلة﴾ واختلف الشكل فأصبح جناساً غير تام .

٧ ـ الإيجاز بالحذف ﴿قال ألم نربك فينا وليداً﴾ دلَّ على هذا الحذف السياق تقديره فأتيا فرعون فقالا له ذلك فقال لموسى ﴿ألم نربّك﴾ وكذلك هناك إيجاز في ﴿فأرسل إلى هارون﴾ قال الزمخشري : أصلُه أرسلْ جبريل إلى هارون واجعله نبياً وآزرني به واشدد به عضدي فأحسن في الاختصار غاية الإحسان[1] .

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٣٨ .

٨ ـ صيغة التعجيب ﴿ألا تستمعـون﴾ .

٩ ـ التأكيد بإنَّ واللام لأن السامع متشكك ومتردد ﴿إنَّ رسولكم الذي أُرسل إليكـم لمجنون﴾ ومثله قول السحرة في بدء المناظرة ﴿إنّا لنحن الغالبـون﴾ وهذا من خصائص علم البيان .

١٠ ـ الطباق بين ﴿المشرق . . والمغرب﴾ ثم توافق الفواصل وهو من السجع البديع .

لطيفـــة : إن قيل كيف قال موسى في بدء مناظرته لفرعون وقومه ﴿إن كنتم موقنين﴾ ثم قال آخراً ﴿إن كنتـم تعقلون﴾ فالجواب أنه تلطَّف ولاين أولاً طمعـاً في إيمانهـم ، فلما رأى منهـم العناد والمغالطة وبخهم بقوله ﴿إن كنتـم تعقلون﴾ وجعل ذلك في مقابلة قول فرعون ﴿إن رسولكم لمجنون﴾ فسلك موسى طريق الحكمة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي . . إلى . . وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ من آية (٥٢) إلى نهاية آية (١٠٤) .

المنَـاسَـبَة : ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة سبع قصص : أولها قصة موسى وهارون ، وثانيها قصة إبراهيم ، وثالثها قصة نوح ، ورابعها قصة هود ، وخامسها قصة صالح وسادسها قصة لوط وسابعها قصة شعيب ، وكل تلك القصص لتسلية الرسول ﷺ عما يلقاه من المشركين ، ولا تزال الآيات تتحدث عن قصة موسى عليه السلام .

اللغـــة : ﴿أسـر﴾ من الإسراء وهو السير ليلاً فلا يقال لمن سار نهاراً أسرى وإنما هو خاصٌ بالليل ﴿شـرذمة﴾ الشرذمة : الجمع القليل الحقير والجمع شراذم قال الجوهري : الشرذمة الطائفةُ من الناس ، والقطعةُ من الشيء ، وثوبٌ شراذم أي قطع[1] ﴿أزلفنا﴾ قرَّبنـا ومنه ﴿وأُزلفت الجنةُ للمتقين﴾ أي قُرِّبـت قال الشاعر :

وكـلُّ يوم مضى أو ليلـةٍ سلفَتْ   فيهـا النفـوسُ إلـى الآجـال تزْدلفُ[2]

﴿فكبْكِبـوا﴾ كَبْكَبَ الشيء : قلبَ بعضه على بعض قال ابن عطية : وهو مضاعف من كبَّ وهذا قول الجمهور مثل صرَّ ، وصَرْصَر ، وقال الزمخشري : الكبكبة : تكرير الكبِّ جُعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى كأنه إذا أُلقي في جهنم ينكـبُّ مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرهـا[3] ﴿حميـم﴾ الحميم : الصديق الخالص الذي يهمه ما أهمَّـك ﴿كـرَّة﴾ الكرة : العودة والرجوع مرة أخرى .

* وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾

التفسِـير : ﴿وأوحينـا إلى موسـى أن أسـر بعبـادي﴾ أي أمرنا موسى بطريق الوحي أن يسير ليلاً إلى جهة البحر ببني إسرائيل قال القرطبي : أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً ، وسمّـاهم عباده لأنهم آمنـوا بموسى[4] ﴿إنكـم متَّبعـون﴾ أي يتبعكم فرعون وقومه ليردُّوكم إلى أرض مصر ويقتلـوكم

(١) القرطبي ١٣/ ١٠١ . (٢) التفسير الكبير ٢٤/ ١٤٠ . (٣) الكشاف ٣/ ٢٥٣ . (٤) القرطبي ١٣/ ١٠٠ .

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾

﴿فأرسل فرعونُ في المدائن حاشرين﴾ أي أرسل فرعون في طلبهم حين أخبر بمسيرهم وأمر أن يُجمع له الجيش من كل المُدُن قائلاً لهم ﴿إنَّ هؤلاء لشرذمةٌ قليلون﴾ أي طائفة قليلة قال الطبري : كان بنو إسرائيل ستمائة وسبعين ألفاً[1] ولكنه قلَّلهم بالنسبة إلى كثرة جيشه ﴿وإنهم لنا لغائظون﴾ أي وإنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا ﴿وإنا لجميعٌ حاذرون﴾ أي ونحن قوم متيقظون منتبهون ، من عادتنا التيقظ والحذر ، واستعمالُ الحزم في الأمور قال الزمخشري : وهذه معاذير اعتذر بها إلى قومه لئلا يُظنَّ به ما يكسر من قهره وسلطانه[2] ، قال تعالى ﴿فأخرجناهم من جناتٍ وعيون﴾ أي أخرجنا فرعون وقومه من بساتين كانت لهم وأنهار جارية ﴿وكنوز ومقامٍ كريم﴾ أي وأخرجناهم من الأموال التي كنزوها من الذهب والفضة ، ومن المنازل الحسنة والمجالس البهية ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ أي مثل ذلك الإخراج الذي وضعناه فعلنا بهم ، وأورثنا بني إسرائيل ديارهم وأموالهم بعد إغراق فرعون وقومه ﴿فأتبعوهم مشرقين﴾ أي فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿فلما تراءى الجمعان﴾ أي فلما رأى كلٌّ منهما الآخر ، والمراد جمعُ موسى وجمع فرعون ﴿قال أصحابُ موسى إنّا لمُدركون﴾ أي مُلحقون يلحقنا فرعون وجنوده فيقتلوننا ، قالوا ذلك حين رأوا فرعون الجبار وجنوده وراءهم ، والبحر أمامهم ، وساءت ظنُونهُم ﴿قال كلا﴾ أي قال موسى كلاً لن يدركوكم فارتدعوا عن مثل هذا الكلام وانزجروا ﴿إنَّ معي ربي سيهدين﴾ إنَّ ربي معي بالحفظ والنصرة ، وسيهديني إلى طريق النجاة والخلاص قال الرازي : قوّى نفوسهم بأمرين : أحدهما أن ربه معه وهذا دلالة النصرة والتكفل بالمعونة والثاني قوله ﴿سيهدين﴾ أي إلى طريق النجاة والخلاص ، وإذا دلَّه على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية في النصرة[3] ﴿فأوحينا إلى موسى أن اضربْ بعصاك البحر﴾ أي أمرنا موسى بطريق الوحي أن يضرب البحر بعصاه ﴿فانفلق﴾ أي فضربه فانشق وانفلق ﴿فكان كل فِرقٍ كالطود العظيم﴾ أي فكان كل جزء منه كالجبل الشامخ الثابت قال ابن عباس : صار فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبطٍ منهم طريق[4] ﴿وأزلفنا ثَمَّ الآخرين﴾ أي وقربنا هناك فرعون وجماعته حتى دخلوا البحر على إثر دخول بني إسرائيل ﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين﴾ أي أنجينا موسى والمؤمنين معه جميعاً ﴿ثم

(١) الطبري ١٩/ ٤٦ . (٢) الكشاف ٣/ ٢٤٨ . (٣) التفسير الكبير ٢٤/ ١٣٨ . (٤) ابن كثير المختصر ٢/ ٦٤٩ .

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾

أغرقنا الآخرين﴾ أي أغرقنا فرعون وقومه قال المفسرون : لما انفلق البحر جعله الله يبَساً لموسى وقومه ، وصار فيه اثنا عشر طريقاً ووقف الماء بينها كالطود العظيم ، فلما خرج أصحاب موسى وتكامل دخول أصحاب فرعون أمر الله البحر أن يطبق عليهم فغرقوا فيه ، فقال بعض أصحاب موسى : ما غرق فرعون ! فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه **﴿إنَّ في ذلك لآية﴾** أي إنَّ في إغراق فرعون وقومه لعبرة عظيمة على إنجاء الله لأوليائه ، وإهلاكه لأعدائه **﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾** أي ومع مشاهدة هذه الآية العظمى لم يؤ من أكثر البشر ، وفيه تسلية للنبي ﷺ ووعيدٌ لمن عصاه **﴿وإنَّ ربك لهو العزيز الرحيم﴾** أي المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه **﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم﴾** هذه بداية قصة إبراهيم أي اقصص عليهم يا محمد خبر إبراهيم الهام وشأنه العظيم[1] **﴿إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون﴾** أي حين قال لأبيه وعشيرته أيَّ شيءٍ تعبدون ؟ سألهم مع علمه بأنهم يعبدون الأصنام ليبيّن لهم سفاهة عقولهم في عبادة ما لا ينفع ، ويقيم عليهم الحجة **﴿قالوا نعبد أصناماً فنظلُّ لها عاكفين﴾** أي نعبد أصناماً فنبقى مقيمين على عبادتها لا نتركها ، قالوا ذلك على سبيل الابتهاج والافتخار ، وكان يكفيهم أن يقولوا : نعبد الأصنام ولكنهم زادوا في الوصف كالمفتخر بما يصنع **﴿قال هل يسمعونكم إذ تدعون﴾** أي قال لهم إبراهيم على سبيل التبكيت والتوبيخ : هل يسمعون دعاءكم حين تلجأون إليهم بالدعاء ؟ **﴿أو ينفعونكم أو يضرون﴾** أي وهل يبذلون لكم منفعة ، أو يدفعون عنكم مضرة ؟ **﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾** أي وجدنا آباءنا يعبدونهم ففعلنا مثلهم قال أبو السعود : اعترفوا بأنها لا تنفع ولا تضر بالمرَّة ، واضطروا إلى إظهار الحقيقة وهي أنه لا سند لهم سوى التقليد[2] ، وهذا من علامات انقطاع الحجة **﴿قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون﴾** أي قال إبراهيم : أفرأيتم هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله أنتم وآباؤكم الأولون ؟ **﴿فإنهم عدوٌّ لي إلاّ ربَّ العالمين﴾** أي فإن هذه الأصنام أعداء لي لا أعبدهم ، ولكن أعبد الله ربَّ العالمين فهو وليي في الدنيا والآخرة ، أسند العداوة لنفسه تعريضاً بهم وهو أبلغ في النصيحة من التصريح **﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾** أي اللهُ

---

(١) قال الفخر الرازي : ذكر تعالى في أول السورة حزن النبي ﷺ بسبب كفر قومه ، ثم ذكر قصة موسى ليعرف محمد أن مثل تلك المحنة كانت حاصلة لموسى ، ثم ذكر عقبها قصة إبراهيم ليعرف محمد أيضاً أن حزن إبراهيم بهذا السبب كان أشد من حزنه ، لأن من عظيم المحنة على إبراهيم أن يرى أباه وقومه في النار وهو لا يتمكن من إنقاذهم إلا بالدعاء والتنبيه . التفسير الكبير ٢٤/١٤٢ (٢) أبو السعود ٤/١٠٩ .

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾

الذي خلقني هو الذي يهديني إلى طريق الرشاد لا هذه الأصنام ﴿والذي هو يطعمني ويسقين﴾ أي هو تعالى الذي يرزقني الطعام والشراب فهو الخالق الرازق الذي ساق المُزْن ، وأنزل المطر ، وأخرج به أنواع الثمرات رزقاً للعباد ﴿وإذا مرضتُ فهو يشفين﴾ أي وإذا أصابني المرض فإنه لا يقدر على شفائي أحدٌ غيره ، وإنما أسند المرض إلى نفسه ﴿مرضتُ﴾ وأسند الشفاء إلى الله رعايةً للأدب ، وإلاَّ فالمرض والشفاء من الله جل وعلا فاستعمل في كلامه حسن الأدب ﴿والذي يميتني ثم يحيين﴾ أي وهو تعالى المحيي المميت لا يقدر على ذلك أحد سواه ، يميتني إذا شاء ثم يحييني إذا أراد بعد مماتي ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ أي أرجو من واسع رحمته أن يغفر لي ذنبي يوم الحساب والجزاء حيث يُجازى العباد بأعمالهم ، وفيه تعليم للأمة أن يستغفروا من ذنوبهم ويقرُّوا بخطاياهم ﴿رب هب لي حُكماً وألحقني بالصالحين﴾ أي هب لي الفهم والعلم وألحقني في زمرة عبادك الصالحين ﴿واجعلْ لي لسانَ صدقٍ﴾ أي اجعلْ لي ذكراً حسناً وثناءً عاطراً ﴿في الآخرين﴾ أي فيمن يأتي بعدي إلى يوم القيامة ، أُذكر به ويُقتدى بي[1] قال ابن عباس : هو اجتماعُ الأمم عليه ، فكلُّ أمةٍ تتمسك به وتُعظِّمه ﴿واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ أي من السعداء في الآخرة الذين يستحقون ميراث جنات الخُلد ﴿واغفر لأبي﴾ أي اصفح عنه واهده إلى الإيمان ﴿إنه كان من الضالين﴾ أي ممن ضلَّ عن سبيل الهدى قال الصاوي : وقد أجابه الله تعالى في جميع دعواته سوى الدعاء بالغفران لأبيه[2] وقال القرطبي : كان أبوه وعده أن يؤمن به فلذلك استغفر له ، فلما بان له أنه لا يفي تبرأ منه[3] ﴿ولا تُخْزني يومَ يُبعثون﴾ أي لا تُذلَّني ولا تُهنِّي يومَ تبعث الخلائق للحساب ، وهذا تواضعٌ منه أمام عظمة الله وجلاله وإلا فقد أثنى الله عليه بقوله ﴿إنَّ إبراهيم كان أُمَّةً﴾ الآية ﴿يومَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بَنون﴾ أي في ذلك اليوم العصيب لا ينفع أحداً فيه مالٌ ولا ولد ﴿إلاَّ من أتى اللهَ﴾ أي إلا من جاء ربَّه في الآخرة ﴿بقلب سليم﴾ أي بقلب نقيٍّ طاهر ، سليم من الشرك والنفاق ، والحسد والبغضاء ، وإلى هنا تنتهي دعوات الخليل إبراهيم ثم قال تعالى ﴿وأُزْلفت الجنةُ للمتقين﴾ أي قُرِّبت الجنةُ للمتقين لربهم ليدخلوها قال الطبري : وهم الذين اتقوا عقابَ الله بطاعتهم إيّاه في الدنيا[4] ﴿وبُرِّزت الجحيمُ للغاوين﴾ أي

(١) قال بعض العلماء : في الاية دليل على استحباب كسب الذكر الجميل إذ هو الحياة الثانية وأنشدوا « قد مات قومٌ وهم في الناس أحياء » .
(٢) الصاوي على الجلالين ٣/ ١٧٥ . (٣) القرطبي ١٣/ ١١٤ . (٤) الطبري ١٩/ ٥٥ .

وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

وأظهرتِ النارُ للمجرمين الضالين حتى رأوها بارزة أمامهم مكشوفة للعيان ، فالمؤمنون يرون الجنة فتحصل لهم البهجة والسرور ، والغاوون يرون جهنم فتحصل لهم المساءة والأحزان ﴿وقيل لهم﴾ أي قيل للمجرمين على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿أين ما كنتم تعبدون من دون الله﴾ أي أين آلهتكم الذين عبدتموهم من الأصنام والأنداد ؟ ﴿هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾ أي هل ينقذونكم من عذاب الله ، أو يستطيعون أن يدفعوه عن أنفسهم ؟ وهذا كله توبيخ ﴿فكُبْكبوا فيها﴾ أي أُلقوا على رءوسهم في جهنم قال مجاهد : دُهوروا في جهنم وقال الطبري : رُمي بعضُهم على بعض ، وطُرح بعضُهم على بعض منكبين على وجوههم[1] ﴿هم والغاوون﴾ أي الأصنامُ والمشركون والعابدون والمعبودون كقوله ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصَبُ جهنَّم﴾ ﴿وجنودُ إبليس أجمعون﴾ أي وأتباعُ إبليس قاطبة من الإنس والجن ﴿قالوا وهم فيها يختصمون﴾ أي قال العابدون لمعبوديهم وهم في الجحيم يتنازعون ويتخاصمون ﴿تاللّهِ إن كنَّا لفي ضلالٍ مبين﴾ أي نقسم بالله لقد كنا في ضلالٍ واضح وبعدٍ عن الحق ظاهر ﴿إذْ نسويكم بربِّ العالمين﴾ أي حين عبدناكم مع ربِّ العالمين وجعلناكم مثله في استحقاق العبادة ﴿وما أضلنا إلا المجرمون﴾ أي وما أضلنا عن الهدى إلاّ الرؤساء والكبراء الذين زينوا لنا الكفر والمعاصي ﴿فما لنا من شافعين﴾ أي ليس لنا من يشفع لنا من هول هذا اليوم ﴿ولا صديقٍ حميم﴾ أي ولا صديقٍ خالص الود ينقذنا من عذاب الله ﴿فلو أنَّ لنا كرَّة﴾ أي لو أن لنا رجعةً إلى الدنيا ﴿فنكون من المؤمنين﴾ أي فنؤ من بالله ونحسن عملنا ونطيع ربنا ﴿إنَّ في ذلك لآية﴾ أي إن فيما ذكر من نبأ إبراهيم وقومه لعبرةً يعتبر بها أولو الأبصار ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي وما كان أكثر هؤلاء المشركين الذين تدعوهم إلى الإسلام بمؤمنين ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي المنتقم من أعدائه ، الرحيم بأوليائه .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الإيجاز بالحذف ﴿فانفلق﴾ أي فضرب البحر فانفلق .

---

(١) الطبري ١٩/ ٥٥ .

٢ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿كالطود العظيم﴾ أي كالجبل في رسوخه وثباته ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه .

٣ ـ الطباق بين ﴿ينفعونكم أو يضرون﴾ وكذلك بين ﴿يميتني ثم يُحْيين﴾ .

٤ ـ مراعاة الأدب ﴿وإذا مُرضتُ فهو يشفين﴾ لم يقل : وإذا أمرضني بل أسند المرض لنفسه تأدباً مع الله لأنَّ الشرَّ لا يُنسب إليه تعالى أدباً ، وإن كان المرضُ والشفاء كلاهما من الله .

٥ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿واجعل لي لسان صدق﴾ استعار اللسان للذكر الجميل والثناء الحسن وهو من ألطف الاستعارات .

٦ ـ المقابلة البديعة ﴿وبُرِّزت الجحيم للغاوين﴾ مقابل قوله عن السعداء ﴿وأُزلفت الجنةُ للمتقين﴾ .

٧ ـ مراعاة الفواصل في أواخر الآيات مثل ﴿المتقين ، والغاوين ، وضلال مبين﴾ وهو من السجع الحسن الذي يزيد في جمال البيان .

تـنبيـه : « روي أن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترةٌ وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ! فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم يا رب : إنك وعدتني ألاّ تخزني يوم يُبعثون ، فأي خزيٍ أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقول يا إبراهيم : انظر تحت رجلك فينظر فإذا هو بذيخ ـ ذكر من الضباع ـ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار » رواه البخاري .

* * *

قال الله تعالى : ﴿كذبت قوم نوحٍ المرسلين . . إلى . . وإنَّ ربك لهو العزيز الرحيم﴾ من آية (١٠٥) إلى نهاية آية (١٩١) .

المنَاسَبَة : لما قصَّ تعالى على نبيه محمدﷺ خبر موسى وإبراهيم أتبعه بذكرقصة نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وكلُّ ذلك تسليةٌ لرسول اللهﷺ فيما يلقاه من قومه ، وبيانٌ لسنة الله في عقاب المكذبين .

اللغَة : ﴿المشحون﴾ المملوء يقال : شحنَ السفينةَ أي ملأها بالناس والدواب والطعام ﴿ريع﴾ الرِّيع : ما ارتفع من الأرض ، والرِّيعُ : الطريق ﴿مصانع﴾ المراد بها الحصون المشيَّدة وهو قول ابن عباس قال الشاعر :

تـركنا ديارهم منهم قِفاراً وهـدَّمنا المصانع والبروجا[1]

---

(١) القرطبي ١٣/ ١٢٣ .

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾

﴿بطشتم﴾ البطش : السطوةُ والأخذ بالعنف يقال : بطَش يبطِشُ إذا أخذه بشدة وعنف ﴿الجبلَّة﴾ الخليقة قال الهروي : الجبلَّة والجِبِلُّ : الجمع ذو العدد الكثير من الناس ومنه قوله ﴿ولقد أضل منكم جِبِلاً كثيراً﴾ أي ناساً كثيرين ويقال : جُبل فلانٌ على كذا أي خُلق ﴿كِسَفاً﴾ جمع كِسْفة وهي القطعة من الشيء .

التفسير : ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ أي كذَّب قوم نوح رسولهم نوحاً ، وإنما قال ﴿المرسلين﴾ لأن من كذَّب رسولاً فقد كذب الرسل ﴿إذ قال لهم أخوهم نوح﴾ أي أخوهم في النسب لا في الدين لأنه كان منهم قال الزمخشري : وهذا من قول العرب : يا أخا بني تميم يريدون يا واحداً منهم ومنه بيت الحماسة « لا يسألون أخاهم حين يندبهم »[1] ﴿ألا تتقون﴾ أي ألا تخافون عقاب الله في عبادة الأصنام ؟ ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي إني لكم ناصح ، أمينٌ في نصحي لا أخون ولا أكذب ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ أي خافوا عذاب الله وأطيعوا أمري ﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾ أي لا أطلب منكم جزاءً على نصحي لكم ﴿إن أجريَ إلاّ على ربّ العالمين﴾ أي ما أطلب ثوابي وأجري إلا من الله تعالى ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ كرره تأكيداً وتنبيهاً على أهمية الأمر الذي دعاهم إليه ﴿قالوا أنؤمن لك﴾ أي أنصدّقك يا نوح فيما تقول ﴿واتبعك الأرذلون﴾ أي والحال أن أتباعك هم السفلة والفقراء والضعفاء ؟ قال البيضاوي : وهذا من سخافة عقلهم ، وقصور رأيهم فقد قصروا الأمر على حطام الدنيا حتى جعلوا اتّباع الفقراء له مانعاً عن اتباعهم وإيمانهم بدعوة نوح[2] ﴿قال وما علمي بما كانوا يعملون﴾ أي ليس عليَّ أن أبحث عن خفايا ضمائرهم ، وأن أُنقِّب عن أعمالهم هل اتبعوني إخلاصاً أو طمعاً ؟ قال القرطبي : كأنهم قالوا : إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعاً في العزة والمال فقال في جوابهم : إني لم أقف على باطن أمرهم وإنما إليَّ ظاهرهم[3] ﴿إن حسابهم إلاّ على ربي لو تشعرون﴾ أي ما حسابهم وجزاؤهم إلا على الله فإنه المطّلع على السرائر والضمائر لو تعلمون ذلك ﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾ أي لست بمبعد هؤلاء المؤمنين الضعفاء عني ، ولا بطاردهم عن مجلسي قال أبو حيان : وهذا مشعرٌ بأنهم طلبوا منه ذلك كما طلب رؤساء قريش من رسول الله ﷺ أن يطرد من آمن من الضعفاء[4] ﴿إنْ أنا إلا نذيرٌ مبينٌ﴾ أي ما أنا إلا نذير لكم من عذاب الله ، أخوفكم بأسه وسطوته

(١) الكشاف ٣/ ٢٥٤ . (٢) البيضاوي ٢/ ٧٦ . (٣) القرطبي ١٣/ ١٢٠ . (٤) البحر ٧/ ٣٢ .

قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾

فمن أطاعني نجا سواءٌ كان شريفاً أو وضيعاً ، أو جليلاً أو حقيراً ﴿قالوا لئن لم تنته يا نوحُ لتكونن من المرجومين﴾ أي لئن لم تنته عن دعوى الرسالة وتقبيح ما نحن عليه لتكوننَّ من المرجومين بالحجارة ، خوفوه بالقتل بالحجارة فعند ذلك حصل اليأس لنوحٍ من فلاحهم فدعا عليهم ﴿قال ربِّ إن قومي كذَّبون﴾ أي قال نوح يا ربِّ إن قومي كذّبوني ولم يؤ منوا بي ﴿فافتحْ بيني وبينهم فتحاً﴾ أي فاحكم بيني وبينهم بما تشاء ، واقض بيننا بحكمك العادل ﴿ونجِّني ومن معي من المؤمنين﴾ أي أنقذني والمؤ منين معي من مكرهم وكيدهم ﴿فأنجيناه ومن معه في الفُلْك المشحون﴾ أي فأنجينا نوحاً ومن معه من المؤ منين في السفينة المملوءة بالرجال والنساء والحيوان ﴿ثم أغرقنا بعدُ الباقين﴾ أي أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي لعبرة عظيمة لمن تفكر وتدبَّر ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي وما أكثر الناس بمؤ منين ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي وإن ربك يا محمد لهو الغالب الذي لا يُقهر ، الرحيم بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة ، ثم شرع تعالى في ذكر قصة « هود » فقال ﴿كذبت عادٌ المرسلين﴾ أي كذبت قبيلة عاد رسولهم هوداً ، ومن كذَّب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين ﴿إذ قال لهم أخوهم هودٌ ألا تتقون﴾ أي ألا تخافون عذاب الله وانتقامه في عبادتكم لغيره ! ﴿إني لكم رسولٌ أمين﴾ أي أمينٌ على الوحي ناصح لكم في الدين ﴿فاتقوا اللهَ وأطيعون﴾ أي فخافوا عذاب الله وأطيعوا أمري ﴿وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلا على ربِّ العالمين﴾ أي لا أطلب منكم على تبليغ الدعوة شيئاً من المال إنما أطلب أجري من الله ، كررت الآيات للتنبيه إلى أنَّ دعوةَ الرسل واحدة ﴿أتبنون بكل ريعٍ آيةً تعبثون﴾ ؟ استفهامٌ إنكاري أي أتبنون بكل موضع مرتفع من الطريق بناءً شامخاً كالعَلَم لمجرد اللهو والعبث ؟ قال ابن كثير : الرِّيعُ المكان المرتفع كانوا يبنون عند الطرق المشهورة بنياناً محكماً هائلاً باهراً لمجرد اللهو واللعب وإظهار القوة ، ولهذا أنكر عليهم نبيُّهم عليه السلام ذلك لأنه تضييعٌ للزمان ، وإتعابٌ للأبدان ، واشتغالٌ بما لا يُجدي في الدنيا ولا في الآخرة[1] ﴿وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾ أي وتتخذون قصوراً مشيَّدة محكمة

(١) ابن كثير ٢/ ٦٥٣ المختصر .

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

ترجون الخلود في الدنيا كأنكم لا تموتون ؟ ﴿وإذا بطشتم بَطَشْتُم جبّارين﴾ أي وإذا اعتديتم على أحد فعلتم فعل الجبارين من البطش دون رأفةٍ أو رحمة ، وإنما أنكر عليهم ذلك لأنه صادر عن ظلم عادة الجبابرة المتسلطين قال الفخر : وصفهم بثلاثة أمور : اتخاذ الأبنية العالية وهو يدل على السرف وحب العلو ، واتخاذ المصانع ـ القصور المشيّدة والحصون ـ وهو يدل على حب البقاء والخلود ، والجبارية وهي تدل على حب التفرد بالعلو ، وكلُّ ذلك يشير على أن حبَّ الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه حتى خرجوا عن حد العبودية ، وحاموا حول دعاء الربوبية ، وحبُّ الدنيا رأسُ كل خطيئة[1] ﴿فاتقوا اللهَ وأطيعون﴾ أي خافوا الله واتركوا هذه الأفعال وأطيعوا أمري ، ثم شرع يذكّرهم نعم الله فقال ﴿واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون﴾ أي أنعم عليكم بأنواع النعم والخيرات ﴿أمدكم بأنعامٍ وبنين * وجناتٍ وعيون﴾ أي أعطاكم أصول الخيرات من المواشي ، والبنين ، والبساتين ، والأنهار ، وأغدق عليكم النعم فهو الذي يجب أن يُعْبد ويُشْكر ولا يُكفر ﴿إني أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيم﴾ أي أخشى عليكم إن لم تشكروا هذه النعم وأشركتم وكفرتم عذاب يومٍ هائل تشيب لهوله الولدان . . دعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب ، وبلغ في دعائهم بالوعظِ والتخويفِ النهاية القصوى في البيان فكان جوابهم ﴿قالوا سواءٌ علينا أوَعظْتَ أم لم تكن من الواعظين﴾ أي يستوي عندنا تذكيرك لنا وعدمُه ، فلا نبالي بما تقول ، ولا نرعوي عمّا نحن عليه قال أبو حيان : جعلوا قوله وعْظاً على سبيل الاستخفاف وعدم المبالاة بما خوّفهم به إذ لم يعتقدوا صحة ما جاء به ، وأنه كاذبٌ فيما ادّعاه[2] ﴿إنْ هذا إلا خُلُق الأولين﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به إلا كذبُ وخرافاتُ الأولين ﴿وما نحن بمعذبين﴾ أي لا بعث ولا جزاء ولا حساب ولا عذاب ﴿فكذبوه فأهلكناهم﴾ أي فكذبوا رسولهم هوداً فأهلكناهم بريحٍ صرصرٍ عاتية قال ابن كثير : وكان إهلاكهم بالريح الشديدة الهبوب ، ذاتِ البرد الشديد وهي الريح الصرصر العاتية ، وكان سبب إهلاكهم من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شيءٍ وأجبره ، فسلّط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشدّ ، فحصبت الريح كل شيء حتى كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه ، وترفعه في الهواء ثم تنكّسه على أم رأسه ، فتشدخ رأسه ودماغه[3] ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي إن في إهلاكهم لعظة وعبرة ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي وما آمن أكثر الناس مع رؤيتهم للآيات الباهرة ﴿وإنّ ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي وإن ربك يا محمد لهو العزيزُ في انتقامه من أعدائه ، الرحيمُ

(١) التفسير الكبير بشيء من الاختصار ٢٤/ ١٥٧ . (٢) البحر ٧/ ٣٣ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٥٤ بشيء من الإيجاز .

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

بعباده المؤمنين ، ثم شرع تعالى في ذكر قصة « صالح » فقال ﴿كذبت ثمودُ المرسلين﴾ أي كذبت قبيلة ثمود نبيَّهم « صالحاً » ومن كذَّب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين ﴿إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون﴾ ؟ ألا تخافون عذاب الله وانتقامه في عبادتكم غيره ! ﴿إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجريَ إلا على ربّ العالمين﴾ كررت الآيات للتنبيه على أن دعوة الرسل واحدة ، فكل رسولٍ يذكّر قومه بالغاية من بعثته ورسالته ، وأنها لصالح البشر ﴿أتتركون فيما ههنا آمنين﴾ أي أيترككم ربكم في هذه الدنيا آمنين ، مخلَّدين في النعيم ، كأنكم باقون في الدنيا بلا موت ؟ قال ابن عباس : كانوا معمَّرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم ، قال القرطبي : ودل على هذا قولُه تعالى ﴿واستعمركم فيها﴾ فقرَّعهم صالح ووبَّخهم وقال : أتظنون أنكم باقون في الدنيا بلا موت[1] ﴿في جناتٍ وعيون﴾ أي في بساتين وأنهار جاريات ﴿وزروعٍ ونخلٍ طلعُها هضيم﴾ أي وسهولٍ فسيحة فيها من أنواع الزروع والنخيل الرطب اللين ؟ أتتركون في كل ذلك النعيم دون حساب ولا جزاء قال المفسرون : كانت أرض ثمود كثيرة البساتين والماء والنخل فذكّرهم صالحٌ بنعم الله الجليلة من إنبات البساتين والجنات ، وتفجير العيون الجاريات ، وإخراج الزروع والثمرات ، ومعنى « الهضيم » اللطيف الدقيق وهو قول عكرمة ، وقال ابن عباس معناه : اليانع النضيج[2] ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾ أي وتبنون بيوتاً في الجبال أشرين بطرين من غير حاجةٍ لسكناها قال الرازي : وظاهر هذه الآيات يدل على أنَّ الغالب على قوم « هود » هو اللذاتُ الخيالية وهي الاستعلاء ، والبقاء ، والتجبر ، والغالب على قوم « صالح » هو اللذاتُ الحسية وهي طلب المأكول ، والمشروب ، والمساكن الطيبة[3] وقال الصاوي : كانت أعمارهم طويلة فإن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم ، لأن الواحد منهم كان يعيش ثلاثمائة سنة إلى ألف[4] ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ أي فاتقوا عقاب الله وأطيعوني في نصيحتي لكم ﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾ أي ولا تطيعوا أمر الكبراء المجرمين ﴿الذين يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون﴾ أي الذين عادتهم الفساد في الأرض لا الإصلاح قال الطبري : وهم الرهط التسعة الذين وصفهم الله بقوله ﴿وكان في المدينة تسعةُ رهطٍ

(١) القرطبي ١٣/ ١٢٧ . (٢) حكى القرطبي في معنى « الهضيم » اثني عشر قولاً كذا في تفسيره ١٣/ ١٢٨ . (٣) التفسير الكبير ٢٤/ ١٥٩ . (٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ١٧٩ .

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾

يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون﴾[1] ﴿قالوا إنما أنتَ من المُسحَّرين﴾ أي من المسحورين سُحرت حتى غُلب على عقلك قال المفسرون : والمُسحَّر مبالغةٌ من المسحور ﴿ما أنتَ إلا بشر مثلنا﴾ أي لستَ يا صالح إلا رجلاً مثلنا ، فكيف تزعم أنك رسول الله ؟ ﴿فائتِ بآيةٍ إن كنت من الصادقين﴾ أي فائتنا بمعجزة تدل على صدقك ﴿قال هذه ناقة﴾ أي هذه معجزتي إليكم وهي الناقة التي تخرج من الصخر الأصم بقدرة الله قال المفسرون : روي أنهم اقترحوا عليه ناقة عُشراء ـ حامل ـ تخرج من صخرة معينة وتلد أمامهم ، فقعد صالح عليه السلام يتفكر فجاءه جبريل فقال :صلِّ ركعتين وسلْ ربك الناقة ففعل ، فخرجت الناقة وولدت أمامهم وبركت بين أيديهم فقال لهم هذه ناقة يا قوم[2] ﴿لها شربٌ ولكم شربُ يوم معلوم﴾ أي تشرب ماءكم يوماً ، ويوماً تشربون أنتم الماء قال قتادة : إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كلَّه ، وشربهُم في اليوم الذي لا تشرب هي فيه ، وتلك آيةٌ أخرى ﴿ولا تمسُّوها بسوء﴾ أي لا تنالوها بأيِّ ضرر بالعقر أو بالضرب ﴿فيأخذكم عذاب يوم عظيم﴾ أي فيصيبكم عذاب من الله هائل لا يكاد يوصف قال ابن كثير : حذَّرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ، تردُ الماء وتأكل الورق والمرعى ، وينتفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شرباً وريّاً ، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تمالئوا على قتلها وعقرها[3] ﴿فعقروها فأصبحوا نادمين﴾ أي فقتلوها رمياً بالسهام ، رماها أشقاهم ـ قُدار بن سالف ـ بأمرهم ورضاهم فأصبحوا نادمين على قتلها خوف العذاب قال الفخر : لم يكن ندمهم ندم التائبين ، لكن ندم الخائفين من العذاب العاجل[4] ﴿فأخذهم العذاب﴾ أي العذاب الموعود ، وكان صيحةً خمدت لها أبدانهم ، وانشقت لها قلوبهم ، وزُلزلت الأرض تحتهم زلزالاً شديداً ، وصُبّت عليهم حجارة من السماء فماتوا عن آخرهم ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي لعظة وعبرة لمن عقل وتدبَّر ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ تقدم تفسيرها فيما سبق ، ثم شرع تعالى في ذكر قصة « لوط » فقال ﴿كذبت قوم لوطٍ المرسلين﴾ أي كذبوا رسولهم لوطاً ﴿إذ قال لهم أخوهم لوطٌ ألا تتقون﴾ أي ألا تخافون عقاب الله وانتقامه في عبادتكم غيره ! ﴿إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه

(١) الطبري ١٩/ ٦٣ . (٢) انظر حاشية زادة على البيضاوي ٣/ ٤٧٧ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٥٦ . (٤) تفسير الرازي ٢٤/ ٦٠

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

من أجر إن أجري إلا على ربّ العالمين﴾ نفسُ الكلمات والألفاظ التي قالها من قبلُ صالحٌ ، وهودٌ ، ونوح مما يؤكد أن دعوة الرسل واحدة ، وغايتها واحدة ، وأن منشأها هو الوحي السماوي ، ثم قال لهم لوط ﴿أتأتون الذُكران من العالمين﴾ استفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ وتقريعٍ أي أتنْكحون الذكور في أدبارهم ، وتنفردون بهذا الفعل الشنيع من بين سائر الخلق ؟ ﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم﴾ أي وتتركون ما أباح لكم ربكم من الاستمتاع بالإناث ؟ قال مجاهد : تركتم فروج النساء إلى أدبار الرجال[1] ﴿بل أنتم قوم عادون﴾ أي بل أنتم قوم مجاوزون الحدَّ في الإجرام والفساد ، وبَّخهم على إتيانهم الذكور ، ثم أضرب عنه إلى ما هو أبلغ في التوبيخ كأنه يقول خرجتم عن حدود الإنسانية إلى مرتبة البهيمية بعدوانكم وارتكابكم هذه الجريمة الشنيعة ، فالذكر من الحيوان يأنف عن إتيان الذكر ، وأنتم فعلتم ما يتورع عنه الحيوان ﴿قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكوننَّ من المُخْرجين﴾ أي لئن لم تترك تقبيح ما نحن عليه لنخرجنك من بين أظهرنا وننفيك من بلدنا كما فعلنا بمن قبلك ، توعدوه بالنفي والطرد ﴿قال إني لعملكم من القالين﴾ أي إني لعملكم القبيح من المبغضين غاية البغض وأنا بريء منكم ﴿ربِّ نجني وأهلي مما يعملون﴾ أي نجني من العذاب الذي يستحقونه بعملهم القبيح أنا وأهلي قال تعالى ﴿فنجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزاً في الغابرين﴾ أي نجيناه مع أهله جميعاً إلا امرأته كانت من الهالكين ، الباقين في العذاب قال ابن كثير : والمراد بالعجوز امرأته فقد كانت عجوز سوء ، بقيت فهلكت مع من بقي من قومها حين أمره الله أن يسريَ بأهله إلا امرأته[2] ﴿ثم دمَّرنا الآخرين﴾ أي أهلكناهم أشد إهلاكٍ وأفظعه بالخسف والحَصْب ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي أمطرنا عليهم حجارة من السماء كالمطر الزاخر ﴿فساء مطرُ المُنْذرين﴾ أي بئس هذا المطر مطر القوم المُنْذرين الذين أنذرهم نبيهم فكذبوه ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي إنَّ في ذلك لعبرة وعظة لأولي البصائر ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ تقدم تفسيره ، ثم شرع تعالى في ذكر قصة « شعيب » فقال : ﴿كذَّب أصحاب الأيْكة المرسلين﴾ أي كذَّب أصحاب مدين نبيهم شعيباً قال الطبري : والأيكةُ : الشجرُ الملتف وهم أهل مدين[3] ﴿إذ قال لهم شعيب ألا تتقون * إني لكم رسولٌ أمين * فاتقوا

(١) زاد المسير ٦/ ١٤٠ . (٢) ابن كثير ٢/ ٦٥٧ . (٣) الطبري ١٩/ ٦٥ .

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾

اللهَ وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجريَ إلا على رب العالمين﴾ سبق تفسيره ﴿أوفوا الكيل﴾ أي أوفوا الناس حقوقهم في الكيل والوزن ﴿ولا تكونوا من المخسرين﴾ أي من المُنْقِصين المُطَفِّفين في المكيال والميزان ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ أي زنوا بالميزان العدل السويّ ﴿ولا تبخسوا الناسَ أشياءهم﴾ أي لا تُنقصوا حقوق الناس بأي طريق كان بالهضم أو الغبن أو الغصب ونحو ذلك ﴿ولا تعْثَوْا في الأرض مفسدين﴾ أي ولا تُفسدوا في الأرض بأنواع الفساد من قطع الطريق ، والغارة ، والسلب والنهب ﴿واتقوا الذي خلقكم والجِبِلَّة الأولين﴾ أي خافوا الله الذي خلقكم وخلق الخليقة المتقدمين قال مجاهد : الجِبِلَّة : الخليقة ويعني بها الأمم السابقين[1] ﴿قالوا إنما أنتَ من المسحَّرين﴾ أي ما أنت إلا من المسحورين ، سُحِرت كثيراً حتى غُلِب على عقلك ﴿وما أنت إلا بشر مثلُنا﴾ أي أنت إنسانٌ مثلنا ولست برسول ﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ أي ما نظنك يا شعيب إلاّ كاذباً ، تكذب علينا فتقول أنا رسول الله ﴿فأسقِطْ علينا كِسَفاً من السماء﴾ أي أنزلْ علينا العذاب قِطَعاً من السماء ، وهو مبالغة في التكذيب ﴿إن كنتَ من الصادقين﴾ أي إن كنت صادقاً فيما تقول قال الرازي : وإنما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه ، فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبه[2] فعندها أجابهم شعيب ﴿قال ربي أعلمُ بما تعملون﴾ أي الله أعلم بأعمالكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به وهو غير ظالم لكم ، وإن كنتم تستحقون عقاباً آخر فإليه الحكم والمشيئة ، قال تعالى ﴿فكذبوه فأخذهم عذابُ يوم الظلة﴾ أي فكذبوا شعيباً فأخذهم ذلك العذاب الرهيب عذابُ يوم الظُّلَّة وهي السحابة التي أظلتهم قال المفسرون : بعث الله عليهم حراً شديداً فأخذ بأنفاسهم ، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابةً أظلَّتهم من الشمس ، فوجدوا لها برداً ونادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم ناراً فاحترقوا جميعاً ، وكان ذلك من أعظم العذاب ولهذا قال ﴿إنه كان عذابَ يومٍ عظيم﴾ أي كان عذاب يوم هائل ، عظيم في الشدة والهَول ﴿إن في ذلك لآية وما كان

(١) الطبري ١٩/٦٦ . (٢) التفسير الكبير ٢٤/١٦٤ .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝﴾

أكثرهم مؤمنين * وإنَّ ربك لهو العزيز الرحيم﴾ وإلى هنا ينتهي آخر القصص السبع التي أوحيت لرسول الله ﷺ لصرفه عن الحرص على إسلام قومه ، وقطع رجائه ودفع تحسره عليهم كما قال في أول السورة ﴿لعلك باخعٌ نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ ففيها تسلية لرسول الله وتخفيفٌ عن أحزانه وآلامه ، وإنما كرر في نهاية كل قصة قوله ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين* وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ ليكون ذلك أبلغ في الاعتبار ، وأشدَّ تنبيهاً لذوي القلوب والأبصار .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ إطلاق الكل وإرادة البعض ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ أراد بالمرسلين نوحاً وإنما ذكره بصيغة الجمع تعظيماً له وتنبيهاً على أن من كذب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين .

٢ ـ الاستفهام الإنكاري ﴿أنؤ من لك واتبعك الأرذلون﴾ ؟

٣ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ أي احكم بيننا وبينهم بحكمك العادل ، استعار الفتاح للحاكم والفتح للحكم لأنه يفتح المنغلق من الأمر ففيه استعارة تبعية .

٤ ـ الطباق ﴿يفسدون . . ولا يصلحون﴾ .

٥ ـ الجناس غير التام ﴿قال . . القالين﴾ الأول من القول والثاني من قلى إذا أبغض .

٦ ـ الإطناب ﴿أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين﴾ لأن وفاء الكيل هو في نفسه نهي عن الخسران ، وفائدته زيادة التحذير من العدوان .

٧ ـ المبالغة ﴿إنما أنت من المسحَّرين﴾ والمسحَّر مبالغة عن المسحور .

٨ ـ توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿يفسدون ، يصلحون ، الأرذلون﴾ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين . . إلى . . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ من آية (١٩٢) إلى آية (٢٢٧) نهاية السورة الكريمة .

المُنَاسَبَة : لما ذكر تعالى قصص الأنبياء لرسوله ﷺ أتبعه بذكر ما يدل على نبوته من تنزيل هذا القرآن المعجز على قلب خاتم الأنبياء والمرسلين .

اللغَة : ﴿زُبُر﴾ الزُبُر : الكُتُب جمع زَبور كرسول ورُسُل ﴿الأعجمين﴾ جمع أعجمي وهو الذي لا يُحسن العربية ، يقال : رجل أعجمي إذا كان غير فصيح وإن كان عربياً ، ورجلٌ عجمي أي غير عربي وإن كان فصيح اللسان ﴿بغتةً﴾ فجأة ﴿مُنْظرون﴾ مؤخرون وممهلون يقال : أنْظره أي أمهله ﴿أفَّاك﴾ كذَّاب ﴿منقلب﴾ مصير .

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾

التفسير : ﴿وإنه لتنزيلُ ربِّ العالمين﴾ أي وإن هذا القرآن المعجز لتنزيلُ ربِّ الأرباب ﴿نزلَ به الروحُ الأمين﴾ أي نزل به أمين السماء جبريل عليه السلام ﴿على قلبكَ لتكون من المُنذرين﴾ أي أنزله على قلبك يا محمد لتحفظه وتُنذر بآياته المكذبين ﴿بلسانٍ عربي مبين﴾ أي بلسانٍ عربي فصيح هو لسان قريش ، لئلا يبقى لهم عذر فيقولوا : ما فائدة كلامٍ لا نفهمه ؟ قال ابن كثير : أنزلناه باللسان العربي الفصيح ، الكامل الشامل ، ليكون بيناً واضحاً ، قاطعاً للعذر مقيماً للحجة ، دليلاً إلى المحجة[1] ﴿وإنه لفي زُبُر الأولين﴾ أي وإن ذكر القرآن وخبره لموجودٌ في كتب الأنبياء السابقين ﴿أولم يكنْ لهم آية﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي أولم يكن لكفار مكة علامة على صحة القرآن ﴿أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ أي أن يعلم ذلك علماء بني إسرائيل الذين يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم كعبد الله بن سلام وأمثاله ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾ أي لو نزلنا هذا القرآن بنظمه الرائق المعجز على بعض الأعجمين الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية ﴿فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾ أي فقرأه على كفار مكة قراءة صحيحة فصيحة ، وانضم إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء ما آمنوا بالقرآن لفرط عنادهم واستكبارهم[2] ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين﴾ أي كذلك أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين ، فسمعوا به وفهموه ، وعرفوا فصاحته وبلاغته ، وتحققوا من إعجازه ثم لم يؤمنوا به وجحدوه ﴿لا يؤمنون به﴾ أي لا يصدّقون بالقرآن مع ظهور إعجازه ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ أي حتى يشاهدوا عذاب الله المؤلم فيؤمنوا حيث لا ينفع الإيمان ﴿فيأتيهم بغتةً﴾ أي فيأتيهم عذاب الله فجأة ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي وهم لا يعلمون بمجيئه ولا يدرون ﴿فيقولوا هل نحن منظرون﴾ أي فيقولوا حين يفجأهم العذاب ـ تحسراً على ما فاتهم من الإيمان وتمنياً للإمهال ـ هل نحن مؤخرون لنؤمن ونصدّق ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ إنكارٌ وتوبيخ أي كيف يستعجل العذاب هؤلاء المشركون ويقولون ﴿أئتنا بعذاب أليم﴾ ؟ وحالُهم عند نزول العذاب أنهم يطلبون الإمهال والنظرة ؟ ﴿أفرأيتَ إن متعناهم سنين﴾ أي أخبرني يا محمد إن متعناهم سنين طويلة ، مع وفور

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٥٩ . (٢) قال في التسهيل ومعنى الآية : ان القرآن لو نزل على من لا يتكلم ، ثم قرأه عليهم لم يؤمنوا لفرط عنادهم ، ففي ذلك تسلية للنبي ﷺ على كفرهم به مع وضوح برهانه أ. هـ التسهيل ٣/ ٩٠ .

﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾

الصحة ورغد العيش ﴿ثم جاءهم ما كانوا يُوعدون﴾ أي ثم جاءهم العذاب الذي وُعدوا به ﴿ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتَّعون﴾ ؟ أي ماذا ينفعهم حينئذٍ ما مضى من طول أعمارهم ، وطيب معاشهم ؟ هل ينفعهم ذلك النعيم في تخفيف الحزن ، أو دفع العذاب ؟ ﴿وما أهلكنا من قرية﴾ أي وما أهلكنا أهل قرية من القرى ، ولا أمةً من الأمم ﴿إلاّ لها منذرون﴾ أي إلاّ بعدما ألزمناهم الحجة بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ﴿ذكرى﴾ أي ليكون إهلاكهم تذكرةً وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وما كنا ظالمين﴾ أي وما كنا ظالمين في تعذيبهم ، لأننا أقمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم . . ثم إنه تعالى بعد أن نبّه على إعجاز القرآن وصدق نبوة محمد عليه السلام ردَّ على قول من زعم من الكفار أن القرآن من إلقاء الجن والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة فقال ﴿وما تنزَّلت به الشياطين﴾ أي وما تنزَّلت بهذا القرآن الشياطين ، بل نزل به الروح الأمين ﴿وما ينبغي لهم وما يستطيعون﴾ أي وما يصح ولا يستقيم أن يتنزل بهذا القرآن الشياطين ، ولا يستطيعون ذلك أصلاً ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ أي لأنهم منعوا من استراق السمع منذ بعث محمد عليه السلام ، وحيل بينهم وبين السمع بالملائكة والشهب ، فكيف يستطيعون أن يتنزلوا به ؟ قال ابن كثير : ذكر تعالى أنه يمتنع ذلك عليهم من ثلاثة أوجه : أحدها أنه ما ينبغي لهم لأن سجاياهم الفساد ، وإضلال العباد ، وهذا فيه نورٌ وهدى وبرهان عظيم ، الثاني : أنه لو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك ، وهذا من حفظ الله لكتابه وتأييده لشرعه الثالث : أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك لأنهم بمعزلٍ عن استماع القرآن ، لأن السماء مُلئت حرساً شديداً وشهباً ، فلم يخلص أحد من الشياطين لاستماع حرفٍ واحد منه لئلا يشتبه الأمر[1] ﴿فلا تدعُ مع الله إلهاً آخر﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمراد غيره أي لا تعبد يا محمد مع الله معبوداً آخر ﴿فتكون من المعذَّبين﴾ أي فيعذبك الله بنار جهنم قال ابن عباس : يُحذِّر به غيره يقول : أنتَ أكرمُ الخلق عليَّ ، ولو اتخذت من دوني إلهاً لعذبتك[2] ، ثم أمر تعالى رسوله بتبليغ الرسالة فقال ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ أي خوِّف أقاربك الأقرب منهم فالأقرب من عذاب الله إن لم يؤمنوا ، روي أنه ﷺ قام حين نزلت عليه ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ فقال : « يا معشر قريشٍ اشتروا أنفسكم من اللهِ لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباسُ بنَ عبدِ المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفيةُ عمةَ رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمةُ بنتَ محمد سليني ما شئتِ لا أغني عنك من الله شيئاً »[3] قال المفسرون : وإنما أمر ﷺ بإنذار

(١) ابن كثير ٢/ ٦٦٠ المختصر . (٢) زاد المسير ٦/ ١٤٧ . (٣) أخرجه الشيخان .

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا

أقاربه أولاً لئلا يظن أحدٌ به المحاباة واللطف معهم فإذا تشدَّد على نفسه وعلى أقاربه كان قوله أنفع ، وكلامه أنجع **﴿واخفض جناحك لمن اتَّبعك من المؤمنين﴾** أي تواضعْ وألِنْ جانبك لأتباعك المؤمنين **﴿فإن عصوْكَ فقلْ إني بريءٌ ممَّا تعملون﴾** أي فإن لم يطيعوك وخالفوا أمرك فتبرأ منهم ومن أعمالهم قال أبو حيان : لما كان الإِنذار يترتب عليه الطاعة أو العصيان جاء التقسيم عليهما فكأن المعنى : من اتبعك مؤمناً فتواضع له ، ومن عصاك فتبرأ منهم ومن أعمالهم[1] **﴿وتوكَّلْ على العزيز الرحيم﴾** أي فوِّض جميع أمورك إلى الله العزيز ، الذي يقهر أعداءك بعزته ، وينصرك عليهم برحمته **﴿الذي يراك حين تقوم﴾** أي يراك حين تكون وحدك تقوم من فراشك أو مجلسك وقال ابن عباس : حين تقوم إلى الصلاة **﴿وتقلُّبك في الساجدين﴾** أي ويرى تقلُّبك مع المصلين في الركوع والسجود والقيام[2] ، والمعنى يراك وحدك ويراك في الجماعة **﴿إنه هو السميع العليم﴾** أي إنه تعالى السميع لما تقوله ، العليم بما تخفيه **﴿هل أنبئكم على من تنزَّل الشياطين﴾** ؟ أي قل يا محمد لكفار مكة : هل أخبركم على من تتنزَّل الشياطين ؟ وهذا ردٌّ عليهم حين قالوا إنما يأتيه بالقرآن الشياطين **﴿تنزَّل على كل أفَّاكٍ أثيم﴾** أي تتنزَّل على كل كذَّابٍ فاجر ، مبالغٍ في الكذب والعدوان ، لا على سيِّد ولد عدنان **﴿يُلقون السَّمعَ وأكثرهم كاذبون﴾** أي تُلقي الشياطين ما استرقوه من السمع إلى أوليائهم الكهنة ، وأكثرهم يكذبون فيما يوحون به إليهم وفي الحديث (تلك الكلمةُ من الحقِّ يخْطَفها الجنيُّ فيقرقرها - أي يلقيها - في أذن وليِّه كقرقرة الدجاج ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة)[3] قال الزمخشري : **﴿يُلقون السَّمع﴾** هم الشياطين كانوا قبل أن يُحجبوا بالرجم يسمَّعون إلى الملأ الأعلى ، فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ، ثم يوحون به إلى أوليائهم من الكهنة والمتنبئة « وأكثرهم كاذبون» فيما يوحون به إليهم ، لأنهم يُسمعونهم ما لم يسمعوا[4] ، ثم ردَّ تعالى على من زعم أن محمداً شاعر فقال **﴿والشعراء يتَّبعُهُم الغاوون﴾** أي يتبعهم الضالون لا أهل البصيرة والرشاد **﴿ألم تر أنهم في كلِّ وادٍ يهيمون﴾** أي ألم تر أيها السامع العاقل أنهم يسلكون في المديح والهجاء كل طريق ، يمدحون الشيء بعد أن ذمّوه ، ويعظِّمون الشخص بعد أن احتقروه قال الطبري : وهذا مثلٌ ضربه الله لهم في افتتانهم في الوجوه التي يُفتنون فيها بغير حق ، فيمدحون بالباطل قوماً ويهجون آخرين[5] **﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾**

(١) البحر ٧/ ٤٦ . (٢) وهذا اختيار ابن جرير الطبري وقيل المراد تقلبه في أصلاب الأنبياء .
(٣) رواه البخاري . (٤) الكشاف ٣/ ٢٦٩ . (٥) الطبري ١٩/ ٧٨ .

يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

أي يكذبـون فينسبون لأنفسهم ما لم يعملوه قال أبو حيان : أخبر تعالى عن الشعراء بالأحوال التي تخالف حال النبوة ، إذْ أمرهُـم كما ذُكر من اتّباع الغُواة لهم ، وسلوكهم أفانين الكلام من مدح الشيء وذمّه ، ونسبة ما لا يقع منهم إليهم ، وهذا مخالف لحال النبوة فإنها طريقة واحدة لا يتبعها إلا الراشدون[1] ، ثم استثنى تعالى فقال ﴿إلا الذيـن آمنـوا وعمـلوا الصالحـات﴾ أي صدقوا في إيمانهم وأخلصوا في أعمالهم ﴿وذكـروا اللـه كثيـراً﴾ أي لم يشغلهم الشعرُ عن ذكر الله ولم يجعلوه همَّـهم وديدنهم ﴿وانتصـروا مـن بعـد ما ظُـلموا﴾ أي هجوا المشركين دفاعاً عن الحق ونصرةً للإسلام ﴿وسيعلـم الذيـن ظلمـوا﴾ وعيدٌ عام في كل ظالم ، تتفتت له القلوب وتتصدع لهوله الأكباد أي وسيعلم الظالمون المعادون لدعوة الله ومعهم الشعراء الغاوون ﴿أيَّ منقلـبٍ ينقلـبون﴾ ؟ أي أيَّ مرجع يرجعون إليه ، وأي مصيرٍ يصيرون إليه ؟ فإنَّ مرجعهم إلى العقاب وهو شرُّ مرجع ، ومصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير .

البَــلاَغَــة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التأكيد بإنَّ واللام ﴿وإنه لتنزيل رب العالميـن﴾ لأن الكلام مع المتشككين في صحة القرآن فناسب تأكيده بأنواع من المؤكدات .

٢ ـ الاستفهام للتوبيخ والتبكيت ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ ؟

٣ ـ جناس الاشتقاق ﴿يعلمه علماء﴾ .

٤ ـ المجاز المرسل ﴿وما أهلكنـا من قرية﴾ المراد به أهلها .

٥ ـ أسلوب التهييج والإلهاب ﴿فلا تدعُ مع اللهِ إلهاً آخر﴾ الخطابُ للرسول بطريق التهييج لزيادة إخلاصه وتقواه .

٦ ـ الاستعارة التصريحية ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ شبه التواضـع ولـين الجانـب بخفض الطائر جناحه عند إرادة الانحطاط فأطلق على المشبّه اسم الخفض بطريق الاستعارة المكنيَّة .

٧ ـ صيغتا المبالغة ﴿أفّـاك أثيم﴾ لأن فعّال وفعيل من صيغ المبالغة أي كثير الكذب كثير الفجور .

٨ ـ الطباق بين ﴿يقولون . . ويفعلون﴾ وبين ﴿انتصروا . . وظُلموا﴾ .

٩ ـ الاستعارة التمثيلية البديعة ﴿في كل وادٍ يهيمون﴾ مثّـل لذهابهم عن سنن الهدى وإفراطهم في

(١) البحر ٧/ ٤٩ .

المديح والهجاء بالتائه في الصحراء الذي هام على وجه فهو لا يدري أين يسير ، وهذا من ألطف الاستعارات ، ومن أرشقها وأبدعها .

١٠ ـ جناس الاشتقاق ﴿منقلب ينقلبون﴾ .

١١ ـ مراعاة الفواصل مما يزيد في جمال الكلام ورونقه مثل ﴿يهيمون ، ينقلبون ، يقولون ما لا يفعلون﴾ الخ .

لطيفة : ذُكر أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ قوله تعالى ﴿أفرأيت إن متّعناهم سنين* ثم جاءهم ما كانوا يُوعدون* ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتّعون﴾ ؟ ثم يبكي وينشد :

نهارُكَ يا مغرور سهْوٌ وغفلة ... وليلُك نومٌ والردَّى لك لازم
تُسرُّ بما يَفنى وتفرح بالمُنى ... كما سُرَّ باللّذات في النوم حالمُ
وتسْعى إلى ما سوف تكره غبَّه ... كذلك في الدنيا تعيشُ البهائم[1]

تنبيه : الشعر بابٌ من الكلام حسنُه حسنٌ ، وقبيحُه قبيحٌ ، وإنما ذمَّ تعالى الشعر لما فيه من المغالاة والإفراط في المديح أو الهجاء ، ومجاوزة حدِّ القصد فيه حتى يفضّلوا أجبن الناس على عنترة ، وأشحَّهم على حاتم ، ويبهتوا البريء ويفسّقوا التقي ، وربما رفعوا شخصاً إلى الأوج ثم إذا غضبوا عليه أنزلوه إلى الحضيض ، وهذا مشاهد ملموس في أكثر الشعراء إلا من استثناهم الله عز وجل ، والشاعر قد يمدح الشيء ويذمه بحلاوة لسانه وقوة بيانه ، ومن ألطف ما سمعتُ من بعض شيوخي ما قاله بعض الشعراء في العسل :

تقولُ : هذا مُجاجُ النَّحل تمدحُه ... وإنْ تعب قلت : ذا قيءُ الزنابير
مدحاً وذماً وما جاوزت وصفهما ... سحرُ البيان يرى الظلماء كالنور

لطيفة : ذُكر أن الفرزدق أنشد أبياتاً عند « سليمان بن عبد الملك » وكان في ضمنها قوله في النساء العذارى :

فبتْن كأنهنَّ مُصرَّعاتٌ ... وبتُّ أفُضُّ أغلاقَ الختام

فقال له سليمان : قد وجب عليك الحد ، فقال يا أمير المؤمنين إن الله قد درأ عني الحدَّ بقوله ﴿ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون* وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ فعفا عنه[1] .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الشعراء »

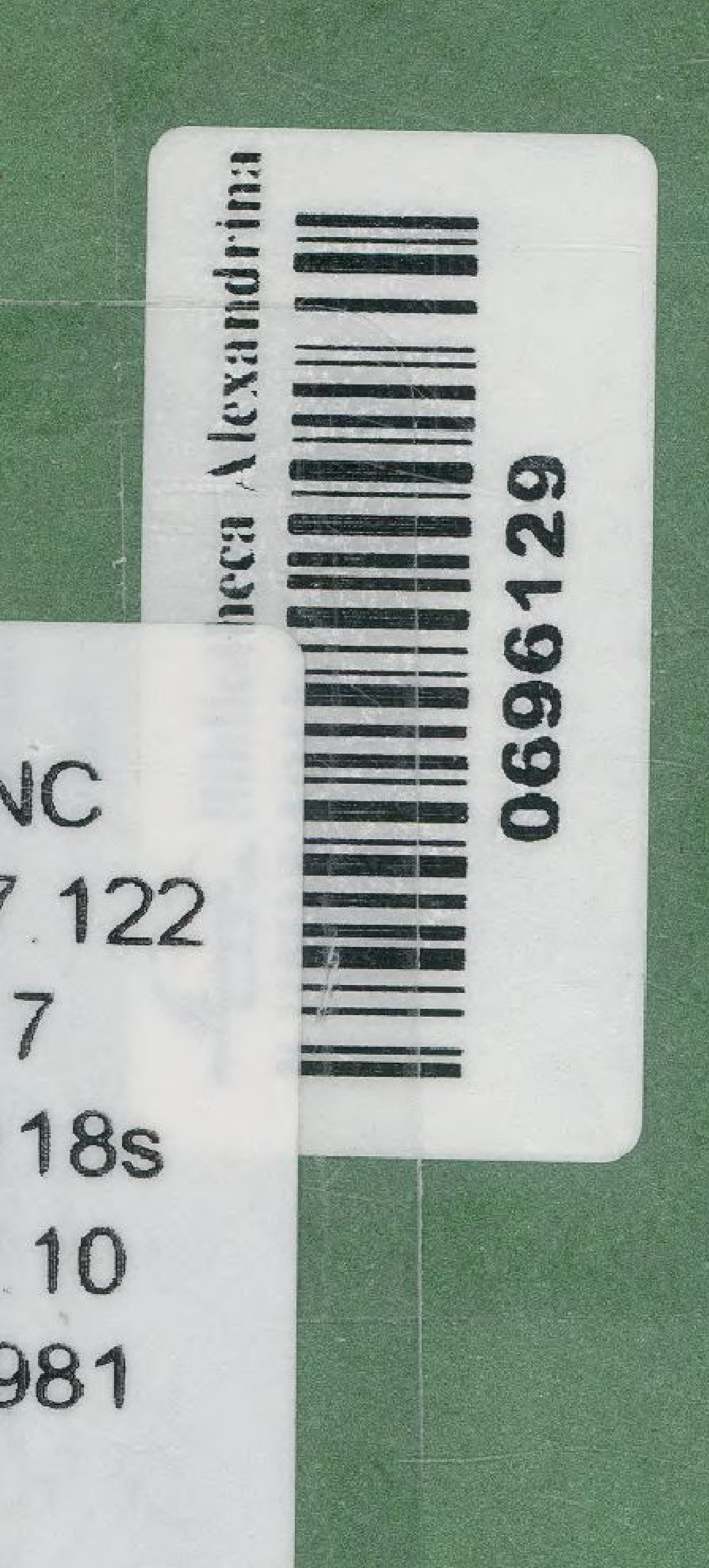
* * *

(١) الكشاف ٣/ ٢٧١ .

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

معالي السيّد حسن عبّاس الشربتلي

وَجعَلَهُ وَقفًا لِله تعالى



يُوزع مجانًا ولا يُباع